

الإرهاق المصبي

نظمي خليل

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

Amly

الارهاق العصبي

اقرا ٢٠٢

دار المعارف بمصر

Amly

نهضة العرب

اقرأ ٢٠٢ - أكتوبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ٥ شارع ماسبيرو - القاهرة

Amly

نهضة العرب

فهرس

صفحة	
٧	تمهيد
١٧	الفصل الأول - الجهاز العصبي
٣١	» الثاني - من هو الشخص العصبي ؟
٤٢	» الثالث - نموذج لحالة عصبية وعلاجها
٥٧	» الرابع - الكبت الجنسي
٧٧	» الخامس - الوسوس
٩٢	» السادس - الإيحاء الذاتي
١٠٠	» السابع - نماذج حية
١٠٠	١ - التهمة
١٠٤	٢ - التبرير الكاذب
١١٦	٣ - القلق النفسي
١٣٠	٤ - السلوك المنحرف
١٤٠	٥ - صبي مشاغب

تمهيد

من الغريب أننا نغنى اليوم بطعامنا وشرابنا وملبسنا وقَلَمًا .
نغنى بأعصابنا ، تلك الأعصاب التي أخذت تنهار تحت
ضربات المدنية الحديثة فتسحقها عجلاتها سحقاً . فقد انتزعت
الآلة مكان الإنسان فأصبحنا اليوم ننتقل ونصنع ونزرع ونكتب
ونحسب بل — بعد قليل — ونفكر ، بالآلة ، حتى أضحي
الإنسان عبداً باختياره للآلة .

لقد أخضعنا أخلاقنا وعواطفنا للمدنية الزائفة التي تقدم
لنا كل مبتكرات العلم من راديو وتلفزة وطائرات وسيارات وغيرها
من وسائل الراحة المادية . بيد أنها لا تزيد في سعادتنا الروحية
شيئاً ، بل إننا دفعنا ثمنها عللاً وأمراضاً واضطرابات عصبية
ومخاوف وأوهاماً .

لقد أفسدت علينا المدنية الحديثة حياتنا العقلية وشوهت
حياتنا العاطفية فسلبتنا سعادتنا الروحية في مقابل لذاتنا المنتظمة
الموقوتة .

ويقول «الدوس هكسلى»: «لقد أصبحت الساعات اللذيذة في عصرنا الحاضر مزمنة - كالأفلام تماماً - فهناك حفلات للرقص كل ليلة ، وهناك أفلام تعرض في جميع دور السينما كل مساء ، وهناك برامج للإذاعة في كل ساعة من ساعات الليل والنهار تستطيع أن تستمع إليها إذا أدت جهاز الراديو كما تدير صنوبر الماء أو زر الكهرباء . وكلما كان الوقت «لذيذاً» كانت درجة السآمة أكبر» .

إن أقول نجم هذه المدنية الحديثة كما نراها ونعيش فيها هو أمل الإنسانية الوحيد في إنقاذ روحها المنحدر .

فإذا أشبعنا أذق رغباتنا وأعمقها ، لم نعد نعبأ بالحياة بعد ذلك ، طالما كان هذا الإشباع إشباعاً للجسم والعقل والروح . ولكن ما أقل أولئك الذين أدركوا هذه الغاية وحصلوا على هذا الإشباع ، وما أكثر الذين ظلوا بمنأى عن غايتهم ، غير أنهم لم يجدوا في أنفسهم القدرة على الإفصاح عن هذا الفراغ في حياتهم ؛ فعمدوا إلى البحث عن سعادتهم في عملهم ، أو في العناية بأبنائهم ، أو بالانصراف إلى هوايتهم المفضلة .

والإشباع يأتي عن طريق الحب . فإذا ما أحببنا فقد

عشنا ، وإذا عشنا ولو فترة وجيزة ، كان هذا أكثر مما يتوقعه معظم الناس ، في عالم قتل فيه من فهم معنى الحياة . ومن لم يفهم معنى الحياة ، غمره الإحساس بالفراغ والعدم ، وعاش في جو من خداع النفس وصراع العاطفة .

فكلما ارتقينا سلم الحضارة تعذر علينا الحصول على السعادة . ويقول « سمطس » إن أسعد الناس ممن صادفهم في حياته هم مواطنوه الإفريقيون . فهم يعملون بالقدر الذي يقوم بأود حياتهم ، ثم يقضون بقية وقته يستمتعون بالشمس الدافئة والأكل والتناسل .

ولكن الشعوب البشرية بلغت من المدنية حداً تخجل فيه أن تفعل هذا . . وعلى هذا نمضي حياتنا . وما أقل من استمتع بها ، وما أكثر من رانت على قلوبهم السامة ، وشاع في نفوسهم الضيق والضعج .

أجل قد يشعر الإنسان أحياناً بوميض من السعادة يشع في جوانب نفسه المظلمة ، غير أن هذا الوميض سرعان ما يخبو عندما تتقدم بنا الأيام .

ولكن الحياة يجب أن تكون حافلة ، والناس يجب أن يكونوا سعداء ، ولا يتسنى لهم هذا إلا إذا عرفوا كيف ينسجمون

مع الأشياء التي تحيط بهم ووقفوا على دوافعهم الفطرية الأولى .

إننا نسمع صرخات عالية تدوى في البرية ، من وقت إلى آخر ، تنذرنا بالخطر الداهم وتنادى بالخلاص وتشير إلى جنتنا المفقودة في عالمنا المادى . ولكن هذه الصيحات لا تصل إلى آذاننا وسط ضجيج الآلات وصخبها .

إننا مخلوقات ذات طبائع متعددة الجوانب ، ويستحيل علينا في الحياة الواقعية أن نَرْضَى كل تلك الجوانب بل إن كثيراً من رغباتنا يناقض بعضه البعض ، فإذا أشبعنا جانباً منها في الحياة الواقعية بقيت جوانب أخرى من غير إشباع .

لقد نجحت التربية والتقاليد في أن تجعلنا نسلك سلوكاً يتفق مع العرف السائد ولكن وراء هذا كله لا تزال توجد نفس الدوافع القديمة التي تدفعنا الآن لأن نسلك طريقاً طبيعياً خاصاً .

أجل لقد استبد بنا العرف والمدنية وروّضانا ، فأشبعنا الجانب الأكبر من طبائعنا ولكن بقي تحت هذا جزء آخر خاضع مهزوم أو مكبوت ، هو الطفل أو الهمجي غير المسئول ، الذي سكن في أعماقنا وهو الذي تتاح له فرصة

التعبير عن نفسه عندما تتمثل في أنفسنا الممثل الهزلى على الشاشة ،
فهو يعمل كل الأشياء التي نحب - أو التي تحب تلك
الأجزاء الممجبة التي لم تُروّض ولم تُهذب فينا - أن تعمله .
لذلك كان لابد من وجود توازن دقيق بين القوى اللاشعورية
الغريزية غير المهذبة ، وبين أمانى الذات العليا . وإننا نشاهد
اليوم كثيراً من الاضطرابات العصبية التي يسيطر فيها اللاشعور
على الذات ، دون أن يقضى على إحساس المريض بالواقع
قضاءً تاماً .

هذه الحالات هي التي تخلق الألف من مرضى الأعصاب
الذين يقاسون شتى الآلام والخاوف والوساوس التي تستبد بعقولهم
فيصبحون غير مهيتين لحياة اجتماعية سليمة بسبب شكواهم
الغريبة وأمراضهم الوهمية كما أنهم لا يجدون إشفاقاً من أحد لأن
مرضهم - في نظر الآخرين - خيالى لا أساس له .
ولكن الحقيقة أنهم مرضى ، ومرضهم هذا ناتج من تغلب
الدوافع الفطرية اللاشعورية على الذات .

وهذه الذات - في الحالات الصحية السليمة - تستطيع
أن توفق بين تلك الدوافع اللاشعورية ومطالب الذات المثالية
عن طريق الإعلاء . غير أنها تعجز عن القيام بهذا في حالات

الاضطرابات . فإذا تعقبنا تلك الحالات خطوةً خطوةً حتى وصلنا إلى مصدرها اللاشعورى الأصيل أمكننا أن نعيد لهؤلاء المرضى التعساء صحتهم العقلية ، وأمکننا أيضاً أن ننفذهم من تلك الحيرة النفسية المخيفة .

لقد فتح لنا علم النفس الحديث أعماق النفس البشرية وأتاح لنا دراسةً دقيقةً للعمليات العقلية المتشعبة ، وبيّن لنا كيف أننا جميعاً قد انحدرنا من أصل حيوانى وأننا جميعاً ننتمى لنوع واحد . فالطبيعة كلٌّ لا يتجزأ ، وليس هناك فاصل محدد بين العقل السليم والعقل المريض . بل لقد قيل إنه يوجد فى كل منا بعض الجنون ، أى أن هناك لمسة من الطبيعة تجعل العالم كله وحدةً واحدةً .

* * *

إن هذا الكتاب يعالج حالات متعددة من ضحايا الأعصاب ويرسم لهم الطريق العملى الصحيح الذى يكفل لهم الشفاء التام من تلك العلل النفسية التى تبهظ كواهلهم وتكاد تكظم أنفاسهم .

فهناك طائفة كبيرة من ضحايا الأعصاب ممن يعتقدون اعتقاداً جازماً بسلامة أعضائهم الجسمية ويؤمنون أن مصدر

تعبهم وقلقهم يجثم في عقولهم .

أمثال هؤلاء الناس قد ينعمون بيوم جميل هادئ بعد فترة قاسية من الكآبة والوجوم ؛ غير أنهم سرعان ما يرتدون إلى حالتهم الأولى ، يرددون سابق شكواهم ويظلون على هذه الحالة النفسية التعسة حتى تنقشع عنهم تلك الغمة التي تلوح كأنها سحابة كثيفة تغشى حياتهم لا يستطيعون أن يتبينوا خلالها وميضاً أو شعاعاً . فقد ران اليأس والقنوط على قلوبهم حتى فقدوا كل أمل لهم في الحياة ، يقطعون أيامهم التعسة وقد استبد بهم شعور من الذعر والفشل والتفاهة حتى اعتقدوا في قرارة نفوسهم أن أمورهم لن تستقيم أبداً ، وأن جميع مشروعاتهم مصيرها الفشل الذريع ، وأن ما مِّنْ أحد يعنى بهم ، أو يقيم لهم وزناً . فما فائدة صحة الجسم وسلامته متى كانوا على هذه الحالة من اليأس والقنوط ؟

إن الخطوة الأولى في طريق الشفاء من هذا المرض العصبي هي أن نبعث في المريض الثقة والتشجيع إذ أن المشكلة كلها تنحصر في أن هناك شعوراً خاطئاً يسيطر؛ والشفاء منه يقوم على أساس تكوين شعور أفضل يسيطر على الشعور الأول . وهذا يتحقق عن طريق الإيحاء ، فالإيحاء يخلق في المريض

الإرادة التي كانت تعوزه من قبل .

وعلى هذا يجب أن نضع حداً لهذه المخاوف وهواجس
الفشل والعجز والخيبة ونستنجد بحلول اللاشعور العجيبة ،
فتكون عوناً حقيقياً لنا ، عوناً يمهّد الطريق لسعادتنا ويجعلنا
نشعر بوجودنا ، عوناً يملأ نفوسنا أملاً في المستقبل ، فترى
الأشياء بראה لامعة مبهجة .

كما يعالج الكتابُ الكثيرَ من حالات الرجال والنساء
من يقاسون من أعصابهم في حالات معينة كأولئك الذين
يخشون الأضواء تسلط عليهم متى كانوا في مواقف الخطباء
والممثلين .

يجانب هؤلاء نجد أناساً لا يقوون على الجلوس في مكان
مغلق فيخافون المسارح وصالات الرقص .

وهناك آخرون على النقيض من هؤلاء ، يخشون الأماكن
الفسحة الطلقة .

بل إن هناك مَنْ يخشى الزواج فتتهار أعصابهم ليلة
الزفاف . . . وكثيراً ما نجد أن مصدر الاضطراب والقلق عند
هؤلاء هو رغبات جنسية مكبوتة .

فالشخص العصبي هو الذي لا يستطيع السيطرة على

غريزته الجنسية إلا بصعوبة غير عادية .
واللاشعور هو المستودع الذى نجد فيه المفتاح لجميع
الاضطرابات العصبية .

بقيت المشكلة الكبرى وهى المشكلة الجنسية — والذى يجب
أن نقرره هنا هو أن الدافع الجنسي هو أحد المصادر العظيمة
للطاقة الإنسانية ، فإذا حُرِّمَ على الإنسان المنفذ العادى عن
طريق التودد والتزواج ، فإنه لابد أن يجد له منفذاً عن طريق
آخر .

هذه الطاقة أو هذه القوة الحيوية قد تنفس عن ذاتها عن
طريق الإجهاد البدنى الشديد ، أو العمل العقلى المبتكر وإن
يكن أكثر ما تتجلى به هو مظاهر العاطفة .

والتربية الجنسية لا تزال تشغل أذهان المربين لما للمسائل
الجنسية من أثر قوى فى حياة الإنسان .

فيجدر بنا أن نعالج هذه المسائل فى كثير من الصراحة
مع احترامنا للمبادئ الأخلاقية العامة ، فنحلل للبالغين عاطفة
الحب ثم التودد الجنسي وعلاقة الرجل بالمرأة وأهمية كل جنس
فى الحياة ، ثم عملية التناسل والتوالد والكبت والإسراف . إذ أليس
غريباً حقاً أن نعلم الطفل كيف يأمل وكيف يعيش ، ونرسم

له أحسن أساليب الصحة ثم لا نعلمه كيف يحيا كإنسان ، وكيف يقف على تلك المشاعر الغريبة التي استيقظ فجأةً على صوتها القوى وندائها الملح ؟ .

هذا الطفل إن حرمانه تلك المعرفة الضرورية عمد إلى استقائها من السوق أو الخدم أو زملائه في المدرسة المتباينين خلقاً ونشأة ، وعندئذ يتردى في مهاوى الفساد تستعبده العادات الضارة التي تشوه جسمه وعقله وخلقه . .

فيجب أن يُربى الطفل على قواعد الشرف والصحة لا على التحذير والتخويف . فإن نتيجة التخويف أحد أمرين . فإما أن يسلك الشاب سلوكاً مقلوباً وطرقاً ملتوية في إشباع هذه الغريزة وإما أن يزنى سراً ، ثم يعود إلى ضميره يؤنبه . حتى إذا ما قوى عنده هذا الندم كوّن فيه ما يسمى « الإحساس بالخطيئة » وهذا من شأنه أن يقتل روحه ويهدم كيانه كما سنرى في الفصول التالية .

الفصل الأول

الجهاز العصبي

قد لا يكون هناك إجماع في الرأي على أن السيطرة على الجهاز العصبي ربما كانت أكثر أهمية للإنسان من أنواع الطعام والشراب التي يتناولها لتكفل له الحياة .

فإن هذا الضغط الشديد الذي يعيش تحته الرجال والنساء في المدن التي قطعت شوطاً بعيداً في الحضارة إن هو إلاّ السبب المباشر لمئات الألوف من تلك الحالات المعروفة باسم « إرهاق الأعصاب » .

فإن الصوت المنبعث من نفير السيارة ، أو الضوضاء الصادرة من رصف الطريق ، بل إن عصفه الهواء الخارجة عن صفارة القطار ، وما شابه هذا من أنواع الضوضاء التي كُتِبَ علينا أن نشقى بها، كل هذه تسبب للجهاز العصبي سلسلة متصلة من الصدمات العصبية لا يقوى على تحملها ، دون أن تنهار طاقته ، إلاّ من وهب تكويناً بدنياً سليماً .

وفوق هذا فإن ظروفنا العصرية التي نمر بها الآن قد قدمت لنا الإرهاق العصبي في أشكال مختلفة مثل الأفلام الصامتة والناطقة وفرق الموسيقى التوقعية وصلات الرقص والأندية الليلية ، كما خلق كتاب الرواية نوعاً معيناً من القصص يستهدف الإثارة الجنسية ، هذه القصص التي تنال اليوم من دور الطباعة كما تنال الرمال من ثقب « الغربال » .

ومن هنا يتولد فينا نوع من الإيحاء يؤدي في معظم الحالات إلى الكبت . وهذا الكبت ، لا سيما الكبت الجنسي ، خطره على الجهاز العصبي كخطر عود الثقاب على البترين القابل للاشتعال .

وبعبارة أخرى فإن هذه الضوضاء والمؤثرات تأخذ صور التكرار الذي من شأنه أن يؤثر في الجهاز العصبي كما يؤثر التآنيب الدائم والتقرير المستمر في صحة الطفل الصغير فيضعفها أو ي تلفها ، وسرعان ما يتحول هذان النوعان من الآلام العصبية وهما الضوضاء والتآنيب إلى حالة لاشعورية تكمن في عقل الإنسان . فإن لم يتداركها ويعمل على طرح هذه الأفكار الخبيثة المقلقة أو يتخلص من تلك الحالة العقلية المضطربة ، فإن الجهاز العصبي كله سوف يتأثر لا محالة . وهذا هو السبب

في تلك الأمراض المتعددة التي يقاسى منها معظم الناس .
 فالجهاز العصبي يسيطر على جميع تصرفات الجسم من
 أفكار وأعمال ، كما يتحكم في وظيفة كل عضو في جسم
 الإنسان ، يتحكم في عمليات الهضم والتنفس والدورة الدموية
 والسمع والنظر واللمس . فكل هذه الوظائف تخضع وتتأثر
 بالجهاز العصبي .

فلا عجب إذن أن نرى هذا الجهاز الذي لا يستربح
 إلا في حالة النوم ، وحتى في هذه الحالة ، قد لا تكون الراحة
 كاملة .. لا عجب أن نرى هذا الجهاز يصيبه التعب والانهيار .
 ولا عجب أيضاً أن نرى كل فرد آخر غيرنا يقاسى
 أو قد قاسى فعلاً ، مما نسميه « إرهاق الأعصاب » . فأنت
 نفسك لاشك تشعر بهذا الانهيار في كثير من الأحوال ،
 فقد ينخيل إليك أن عضواً أو عضوين من جسمك لا يؤديان
 وظيفتهما خير أداء ، وقد تتسلط عليك فكرة ملحة أن أحد
 هذه الأعضاء مريض أو هو في طريقه إلى المرض . ولكن
 معظم هذه الحالات مرجعها الأعصاب .

ولكى نبدأ العلاج ونمضي فيه حتى نهايته يصبح من
 الضروري أن نلم بعض الشيء بالجهاز العصبي ، فهو يتكون

من الجزء الأوسط ويشتمل على المخ والحبل الشوكى كما يتكون من الفروع الخارجية والأعصاب التى تتذبذب بين المخ والحبل الشوكى .

ولما كان المخ والحبل الشوكى على جانب كبير من الأهمية لسلامة الجسم فقد خلقا مُغَلَّفَيْن بأغطية عظمية قوية ، هي الجمجمة والعمود الفقرى .

وتتكون الأعصاب التى تنتقل بين هذين المركزين العظيمين من أليافٍ عدّةٍ يحمل بعضها الدوافع من المخ وعضلات الحبل الشوكى إلى عضلات الجسم وأعضائه المختلفة وهناك ألياف أخرى تحمل رسائل من الأجزاء الخارجية إلى المخ والحبل الشوكى ، وبهذه الطريقة تؤدى حواس النظر والسمع واللمس وغيرها من الحواس وظائفها ، كما تحقق القدرة على التوازن واستخدام عضلاتنا .

بل إن أعضاء الحواس الخارجية — العين والأذن والأنف — قد تخصصت فى هذا الميدان إلى درجة أن الدوافع التى تخرج منها تجرى فى أعصاب معينة إلى أجزاء خاصة من المخ حيث تثير الإحساس الخاص المتصل بها . فالدافع الذى يجرى فى العصب البصرى مثلاً يكون فى مؤخرة العين — الشبكية — ثم

يمضى فى طريق خاص إلى المخ وهناك يثير الإحساس بالنظر .
ولو كان من الممكن أن نلمس الشبكية فى مؤخرة العين ،
لما أحسنا بهذا اللمس . فالشئ الذى يثار هو حاسة النظر
وهذا هو الأصل فى « رؤية النجوم » أو رؤية الشرر عندما
تصاب العين بضربة قوية .

وبالمثل نجد أن أشعة الضوء التى تؤثر فى الجلد حيث
توجد نهايات عصبية خاصة للمس ، لا تثير إحساساً البتة ،
فإن الجلد غير مهياً للنظر . فإن كان الضوء يستطيع أن يثير أى
إحساس فى الجلد فإن هذا الإحساس يكون نوعاً من الشعور
أو اللمس أو الدفء .

كما أن الجهاز العصبى بجانب قيامه بوظيفة توليد الحركة
فى السيطرة على أعضاء الجسم وتسجيل الإحساسات فهو
أيضاً مستودع لتلك القدرة العجيبة وهى الذاكرة . فإن الذاكرة
الشعورية واللاشعورية تلعب دوراً هاماً فى تحديد الحالة
العصبية فى الإنسان .

ويجب ألا يغيب عن أفهامنا أن جزءاً كبيراً من الجهاز
العصبى له شأن هام بوظائف الجسم ، تلك الوظائف التى
لا نشعر بها تماماً فى حالة الصحة . فإن الإنسان السليم لا يدرك

أن له بطناً وأمعاء وكبداً أو كليتين . إذ أن كل هذه الأعضاء تعمل دون أن ندري أنها تعمل . ولكنها تقوم بعملها هذا تحت رقابة ما يسمى بالجهاز العصبي السمبتاوى .

ولكن هذا الجهاز العصبي السمبتاوى وإن يكن يعمل في غفلة منا ، إلا أنه يستطيع أن يختزل الذكريات ويكون العادات . لذلك كانت هذه الخاصية في جهازنا العصبي ، — هذه الخاصية الهامة وهي قدرته على اختزان الانطباعات دون علم منا — تلعب ، كما سنرى فيما بعد ، دوراً هاماً في إحداث الاضطرابات العصبية .

فعند معالجتنا الاضطرابات العصبية هذه ، يجب ألا ننفل ، لا الجانب الواعي للعقل فحسب ، بل نذكر أيضاً ما يسمى بالعقل الباطن أو اللاشعور . ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن اللاشعور هو المستودع الذي نجد فيه المفتاح لجميع الاضطرابات العصبية . ولكي نوضح هذا الكلام نقتطف ما قاله ذلك العالم الحجة « مكدوال Mc. Dowall

» في كل لحظة من لحظات يقظتنا ، ندرك فيضاً دائماً من المؤثرات المتباينة التي تصل إلينا عن طريق الأعضاء والحواس المتعددة ، فنحن ندرك دائماً ما يحيط بنا ، فترى ونسمع ونتذوق،

ونشم ونلمس ، فهناك إحساسات متعددة تقع على أجزاء متباينة من الجسم ، وهناك الأفكار المرتبطة بعضها ببعض والآراء والصور ، كل هذه المؤثرات تتدفق باستمرار وتكوّن الارتباطات والذكريات .

« وكلنا يعلم أننا لا نكاد نخطو عتبة الشعور حتى نجد مستودعاً هائلاً من 'الغذاء العقلي' نستطيع أن نغوص فيه متى شئنا . وبعض أجزاء هذا المستودع أقرب منالاً من البعض الآخر . ولكننا نشعر أننا نستطيع إذا بذلنا الجهد الكافي أن نستخرج بعض الأشياء من تلك الآراء البعيدة .

« وهذا المستودع إن هو إلا سجلات لا تُحصَى للحقائق والمؤثرات والرغبات والأمانى والخاوف ، فنحن نتوقف لحظة نستطيع بعدها أن نسترجع ما كنا نزاوله في مساء اليوم السابق . فنتذكر الناس الذين قابلناهم ، وتكون النتيجة أن مجرى كاملاً من الذكريات المتصلة يُصَبُّ في منطقة اللاشعور » .

ونلاحظ هنا أن « مكدوال » يستعمل هذه الألفاظ والمؤثرات والخاوف في مقاله هذا . لذلك يجدر بنا ، أن نتذكرها إذ أننا سنرى فيما بعد أن هذه المؤثرات والخاوف يُعزَى إليها الجانب الأكبر من الاضطراب العصبي .

فالدراسة الطبية الحديثة للعقل تكشف عن ميدان أوسع هو الذى نسميه « اللاشعور » ، ذلك الميدان الذى استقرت فيه جميع شئون حياتنا التى ينجل إلينا أنها نُسيِتْ تماماً مثل انطباعات الطفولة . فإن هذه الانطباعات هى فى معظم الحالات السبب فيما يصيب الشخص البالغ من انهيارات نفسية وإرهاق عصبي .

صحيحٌ أننا لا نستطيع التغلغل فى منطقة اللاشعور . إلا أنه لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن سلوكنا وأفكارنا تتأثر بالدوافع والرغبات التى تعمل فى هذا الجزء من العقل الذى نظل غافلين عنه .

فالشخص العصبي هو فى الغالب شخص جاءت متاعبه نتيجةً لآثار سيئة مخزنة مخيفة حدثت له فى سنيه الأولى ، وربما كان إدراك هذه الآثار أو تذكرها قد أفلت منه منذ زمن بعيد . إلا أن أثرها الدفين لا يزال يعمل فى داخله مسبباً بذلك اضطرابه العصبي ، وإن لم يفتن هو لذلك .

أمثال هذا الشخص — وقد تكون أنت أحدهم — لا يمكن مساعدتهم إلا بالتنقيب عن مصدر هذه المتاعب والقلق

والكشف عنها . ومتى تبينتها الشخص العصبي واعترف بها
أمكنه التغلب عليها .

إن هذه الطريقة العلاجية تُعَرَّفُ بالتحليل النفسي
أو تحليل اللاشعور بواسطة خبير طبي .

وستتناول الكشف العظيم عن العقل بشيء من الإسهاب
وسنقدم مثالا أو مثالين لعقل شخص مريض بالاضطراب
العصبي .

أجل إنَّ هناك بعض الاضطرابات العصبية الناجمة عن
نقص في تكوين بعض أجزاء الجهاز العصبي ، هذا النقص
قد يرجع إلى فقر في كمية الدم أو تسمم في الدورة الدموية ،
أو إلى حادث ؛ هذه الأمراض العضوية للأعصاب أو المخ
أو الحبل الشوكي قد تؤدي إلى صور متعددة من الشلل
أو أنواع متباينة من الأمراض العقلية . . وفي مثل هذه الحالات
يجب ألا نغفل أن هذا الاضطراب العصبي ناتجٌ من تسمم
مجرى الدم الذي يغذي تلك الأعصاب . . لذا كان من الواجب
عليك متى ساورتك الشكوك في أنك تقاسى من أى نوع
من أنواع التسمم ، أن تبادر إلى استشارة طبيبك الذي يسارع في

إخبارك إذا كانت هذه الشكوك لها ما يبررها أو ليس لها وجود البتة .

فإذا لم يكن هناك ما يبرر هذه الشكوك، تستطيع بعد ذلك أن تتأكد أن اضطرابك اضطراب وظيفي . وهذا هو ما نحن بصددّه الآن . فنحن نعالج الاضطرابات العصبية الوظيفية ، أى الاضطرابات التى لا نستطيع رؤية سببها بالعين المجردة . وهذا هو ما يعيننا فى هذا الكتاب .

ولو أننا قمنا بفحص الجهاز العصبى عند شخص يقاسى كثيراً من أعصابه بدرجة يشرف فيها على الموت ، لما وجدنا فى جهازه هذا شيئاً يخالف جهاز الرجل السوى (العادى) تماماً . فشكلته هى خطأ فى الأداء لا خطأ فى التكوين . وحتى لو كان الخطأ فى التكوين لكان هذا فى التكوين الخفى أى فى الذاكرة التى يُظَنُّ أنها قاعدة المخ . وهذا ما لا نستطيع إدراكه بالعين .

وجملة القول ، عليك أن تتذكر دائماً أن العقل سواء الواعى أو غير الواعى ، هو القوة التى تستطيع أن تشفى بها نفسك من أى اضطراب عصبى وظيفي . أو من أية إصابة عادية مما يُطلَقُ عليه الإرهاق العصبى .

فعلينا أن نتعلم كيف نستخدم هذه القوى الكامنة فينا حتى يكون عندنا العقل السليم في الجسم السليم . ومن أجل هذا يجب أن نوضع تلك القوى تحت الرقابة إذ أنه من المؤكد أنها ستأتى بنتائج معينة ولكنها إذا تُركت وشأنها فإن نتائجها لا تكون في الغالب من النوع المرغوب فيه .

إن العقل في حاجة إلى تنظيم ، شأنه في ذلك شأن الشركة أو المصنع ، وما من أحد يستطيع أن يجهر بهذا الرأي، وهو ترك الشركة أو المصنع يدير نفسه بنفسه لأننا نعرف نتيجة هذا . فإن حسن الإدارة والتنظيم يكفلان للشركة أو المصنع نجاحاً كبيراً ووفرة في الإنتاج . كذلك الحال إذا عملنا على تنظيم أنفسنا، فإن العقل والجسم سوف يقدمان نفس الإنتاج . فالجسم يقدم لنا صحة موفورة ، كما يريحنا العقل من المخاوف الوهمية التي ترهق أعصابنا ، ويطلق تلك القوى التي نشعر بها كلنا أنها تعمل في داخلنا ، وبذلك نستطيع ألاّ نظلم أنفسنا على أى حال من الأحوال .

لقد قيل إننا خلّقنا على صورة عجيبة جداً . وهذا حق . فلدينا قدرات عجيبة ، بل إننا أكثر تعقيداً من آلة التليفون

الحديثه إذا قارنا أنفسنا بها ، وقد عُيِّنَت أنت حارساً على تلك الآلة العجيبة المعقدة لترى ماذا أنت فاعل بها : أنتوى أن تدعها وشأنها وتقنع بما يحدث حولك كيفما اتفق ، أم أنك تريد أن تجعل أعصابك تعترض سبيل صحتك وبالتالي تقوم صحتك باعترض سبيل أعصابك حتى يسوقاك كلاهما في آخر الأمر إلى مآزق حرجة . هذه المآزق الحرجة هي اختبار بل تحدٌ لذكائنا ، فهي المحك الذى تمتحننا به الطبيعة لترى إذا كنا قادرين على الخروج منها والتغلب عليها .

ما من إنسان رجلاً كان أو امرأة ، يقنع بالجلوس وقد طوى يديه وهو يردد هذا الكلام « لا يمكن عمل هذا . الواقع إن هذا يمكن عمله . بل يجب تحمله . ولن تكون سعيداً إن لم تعمله . » وعلى ذلك إذا امتحتنتك الطبيعة فى أعصابك أو حتى ببعض السقم الجسمى ، فإن الطبيعة تريد أن تقول لك « والآن ماذا أنت فاعل إزاء هذه الحالة ؟ أتلقاها مستسلماً مهزوماً أم تقابلها بروح المحارب الشجاع ؟ »

إن أى إنسان يكلف نفسه مشقة قراءة هذا الكتاب سيختار بالطبع الطريق الآخر وهى روح المحارب .

غير أن أساليب الحرب والطعان متعددة الألوان . فنها

الجيد ومنها الردىء . وفى حربنا مع الأعصاب توجد طرق سليمة وطرق خاطئة .

وفى هذا الكتاب ستعرف ما ينبغى أن تعمله وما لا ينبغى . وكلاهما على درجة واحدة من الأهمية .

ولكن أهم شيء هو أن تدرك ما قاله أحد الأطباء من أن لفظ « عصبى » مرادفٌ للفظ « قابل للشفاء » .

والأمر الثانى هو أن تبحث عن الطريقة الصحيحة للشفاء . فعليك أن تنزل إلى أعماق الاضطراب لتقف على المواطن التى كنت مخطئاً فيها . وفى تلك المواطن ذاتها عليك أن ترسم طرقك .

هناك آلاف الحالات للإرهاق العصبى . ونحن لا نستطيع — بل ولا نريد — أن نعالج كل حالة على حدة . ولكننا نلاحظ الشبه التام ونحاول أن نجد المصدر العام له ، لأن المتاعب تنجم فى معظم الحالات من تلك القوى غير المكبوحه التى تُركت داخل « المصنع » الذى يدير نفسه . وبمجرد ما نستعيد النظام والقانون والتوجيه الذاتى والسيطرة التامة ، لا تلبث كل هذه الاضطرابات التى نجمت من عدم وجود هذه الأشياء ، أن تسير فى طريق العلاج ، وبذلك نحول تلك الطاقة إلى الإنتاج بدل الضياع ،

وسرعان ما نشعر بالتحسن فيبدأ العقل فى استعادة مرجه
الطبيعى ، وتتوارى المتاعب وتأخذ الحياة اتجاهاً جديداً .
وسبب هذا كله هو أن « المدير المنظم » الذى هو أنت قد
بدأ يزاول عمله جاعلاً الأشياء تجري فى مجراها الصحيح . . .

الفصل الثانى

من هو الشخص العصبي ؟

إن كلمة « عصبي » ربما كانت من أشد الألفاظ اتصالا بسلوك الإنسان ، وهى فى الوقت نفسه أبعداها عن تأدية معناها الدقيق . فربما كانت هذه الكلمة تدخل فى تكوين الجهاز العصبي ؛ وفى هذه الحالة يصح أن يقال إن مرض النوم هو مرض عصبي لأننا نجد فيه التهاباً للأنسجة العصبية .

ومنذ القرن الثامن عشر أصبحت كلمة « عصبي » تُطْلَق على الشخص السريع التأثير والانفعال ، الشخص القلق الذى لا ينسجم مع غيره من الناس أو مع بيئته .

ثم مضى الناس فى اعتقادهم هذا حتى أن علماء النفس والأطباء يُعدّون مسئولين عن إشاعة هذا اللفظ على غير حقيقته بين الناس ، إذ أطلقوا هذا اللفظ على كل مريض يحاول أن يعرف طبيعة مرضه . فإن الطبيب يقول لمثل ذلك المريض المتشبث إن تصرفاته الشاذة أو عدم انسجامه مع الجماعة هى أعمال عصبية ، ذلك أنه لا يدري ماذا يقول له ، أو لأنه يريد

أن يتجنب الدخول معه في مناقشة طبيعة مشكلته هذه . وعلى هذا استعمل لفظ عصبي في معانٍ غير دقيقة حتى لم يعد له مدلول معين .

أما في حياتنا العادية فإننا نستعمل لفظ « عصبي » في وصف كل اضطراب عضوى ، وقد نطلقه على حالة « عدم الانسجام » أو المرض العصبي الذى هو أمر يختلف عن هذا كل الاختلاف ، وإن كنا في معظم الأحيان نجد كلمة « عصبي » تدل على جانب معين من عدم الانسجام .

كما أننا نلاحظ أن الشخص العصبي لا يستطيع الجلوس ساكناً بل نلفاه يلوى يديه أو يطوى ساقه ، ثم يتحرك يمنة ويسرة أو يتململ في جلسته حتى ولو كان المقعد مريحاً ، وكان هو على جانب كبير من السرور والسعادة .

كما نلاحظ أعراضاً أخرى للحالة العصبية كقضم الأظافر أو فرك اليدين أو « نقر » المائدة بأصابعه وغير ذلك من الأفعال المتكررة التى يأتيا الشخص العصبي في حركات سريعة لا شعورية .

كما أن هناك شخصاً عصبياً آخر نراه سريع التأثير بجميع الأصوات المتصلة أو المتلاحقة كحركة المرور وضجيج

الآلات . كما يلقى المنغصات البسيطة أو المضايقات التافهة في ثورة انفعالية جامحة لأساس لها من العقل والمنطق . ولهذا أطلقَ على الشخص العصبي لفظ « السريع التهيج » وهو أحد مظاهر الاستعداد للانفعال الشديد بسبب المضايقات التافهة . هذا بجانب الأعراض البسيطة لحالة القلق—التي يتعرض لها الشخص العصبي — كالتردد والخوف من المستقبل .

إن هذه الحالة العصبية التي نعرضُ لها هي نتيجة حتمية لتصرفات شاذة إزاء مشاكل شخصية عجز صاحبها عن حلها . فإن الشخص العصبي لديه دوافع تظل غير مشبعة ، ثم إنه يواجه بعض المواقف التي لا يستطيع أن يتهيأ لها . فتكون النتيجة خلق حالة من التوتر الانفعالي . إذ ما دام هذا الشخص قد اعوزته المخارج المحددة المعروفة سواء في سلوكه المباشر أو في الطرق الدفاعية ؛ فإن هذه الحالة ستظل قوية فيه وتدفعه إلى إتيان هذه التصرفات .

وهذا من شأنه أن يفسر سرعة تأثره أو قابليته الشديدة للتصرف السريع ، إذ أن التوتر الانفعالي يسهل مهمة الاستجابة لأي مؤثر قد يصيب الإنسان .

فالسلوك العصبي هو سلوك حاد . فالشاب القادم على

مقابلة رئيسه يكون عصبياً نتيجةً لتوتر خوفٍ فيه سرعان ما يزول بمجرد انتهاء المقابلة .

أما الشخص العصبي « المزمن » فهو يتصرف في حالة انفعالية شاذة إزاء مشكلة قائمة، هي في أغلب الأحيان سلوك تجاه عيب شخصي ، وفي هذه الحالة المزمنة تأخذ الاستجابة العصبية طابع العادة في الإنسان ، وتظل معه حتى بعد أن تكون المشاكل التي أثارها قد زالت تماماً .

وهناك فهم خاطئ متداول بين الناس عن سبب « العصاب » العادى أو الحالة العصبية ، هذا الفهم يقوم على اعتبار العصاب شكوى عضوية راجعة إلى الأعصاب الضعيفة ، كما أن الشخص العصبي يعتقد أن سبب اضطرابه يُعزى إلى ضعف عام للجهاز العصبي شبيه باضطراب المعدة أو ضعف القلب . غير أن هذا الاعتقاد خاطئ في أساسه ، لأن الجهاز العصبي ليس عضواً آلياً كالقلب أو الجهاز الهضمي ؛ فالجزء الضعيف في الشخص العصبي ليس أعصابه ، ولكن ضعفه منحصر في تعوّده على مجابهة مشاكله وتكييفه لنفسه على حسب بيئته .

كما أن هناك ملاحظة خادعة مضللة وهي أن حالات الغدد — كزيادة الإفراز في الغدة الدرقية مثلاً — من شأنه أن يسبب

استجابة سريعة شبيهة بالحالة العصبية المألوفة .
ولا شك أن كثيرين من الأشخاص العصبيين يقاسون
من خللٍ في الغدد، ولكن معظم الحالات العصبية لا تُعزى
إلى هذا السبب بل ترجع إلى أفعال سيكولوجية .

كما يلاحظ أيضاً أن كثيرين من الأشخاص العصبيين
يقاسون من اضطرابات جسمية مزمنة ، قد تكون ناشئة من قرحة
في المعدة أو التهاب في المفاصل أو حصى في المرارة وغيرها . .
ولكن في معظم هذه الحالات لا يكون المرض الجسمى هو
العامل المباشر في خلق تلك الحالة العصبية ، بل يكون عاملاً
غير مباشر . فإن الشخص الذى يقاسى من هذه الأمراض
يخشى مستقبله ، لا سيما إذا طال العلاج ولم تظهر له نتائج
سريعة ، فنراه يأتى تصرفات شاذة إزاء ما يصادفه من عوائق .
وعلى هذا، نجد التصرف الانفعالى هو المصدر الأصيل

لحالته العصبية وليس المرض ذاته . «
فإذا شُفِيَ الإنسان من ذلك الاضطراب الجسمى، فإن آثار
العصبية تختفى في العادة تبعاً لذلك .

وهناك سبب آخر للاعتقاد السائد بأن الحالة العصبية
هى مرض عضوى ، ذلك أننا نلاحظ أن الحالة العصبية تخف

حدتها باستعمال العقاقير والأدوية، وعادة ما تكون العقاقير المستعملة في مثل هذه الحالات « مهبطات مخية » Cerebral Depressants تشتمل على مسكنات .

وأثر هذه المهبطات هو الحد من نشاط العضو، بالتقليل من حدة اندفاع المؤثرات الحركية .

كما أن استعمالها في تهدئة القلق شبيه " باستعمال المخدر في تخفيف حدة الألم . ففي كلا الحالتين يظل السبب الأصلي كما هو وإن ساد المريض هدوء ظاهرى .

إن المهبطات المخية لا تقوى الأعصاب ولكنها تهدئها فقط ، حتى تفقد نشاطها .

فإذا نصح بها الطبيب كان لها أثر عظيم الفائدة إذ أنها تخفف من حدة الأعراض العصبية التي هي في ذاتها منغصات ، كما أنها تقنع المريض أنه يتحسن .

كما أن كثيراً من الأدوية المعروفة المقوية للأعصاب تخفف الحالة العصبية — مؤقتاً — غير أنها وخيمة العاقبة . فبعضها ، لا سيما تلك التي تحتوى على المسكنات ، لها تأثير سيئ على الجسم ، حتى الأدوية الأقل ضرراً نسبياً لا تستطيع أن تكفل علاجاً دائماً .

لذلك ليس هناك علاج غير ذلك الذى يهين أو يكيّف الإنسان لمواجهة مشكلته النفسية .

إن التغلب على الحالة العصبية العادية ليس أمراً يسيراً لا سيما إذا كانت مزمنة ، فإذا كانت المشكلة التى تسبب التوتر الانفعالى مشكلة خارجية ، كان فى التخلص من تلك المشكلة شفاء للمريض ،

كما أن التغيير فى أسلوب المعيشة أو العمل أو البيئة أو الأصدقاء قد يكون مفيداً إذا استطاع هذا التغيير أن ينتزع الشخص العصبى من حالة التوتر التى تسبب له تلك الحالة الملحة من عدم الانسجام .

ولكن هناك كثيراً من الحالات لا يتحقق فيها الشفاء لأن المريض يحمل المؤثر معه فى صورة عقدة «نقص». كما أن سلوكه يغشاه الخوف العام من جميع المواقف التى يواجهها . فإذا أمكن الوقوف على تلك الحالة ، فى وقت مبكر أو قبل فوات الأوان ، أمكن للتكييف الجديد أن يحقق أثره المطلوب ، فيمنح الشخص القوة ليتبصر حاجته ويعينه على أن يتهيأ — فى نشاط — لمواجهة جميع مشاكله والصعاب التى تعترض طريقه .

كما أن نوع العلاج الحقيقى يختلف كثيراً تبعاً لطبيعة المشكلة التى لم يكتف الشخص نفسه لها .

أما إذا أزمّت الحالة العصبية واتخذت شكل عادة، تعذر الشفاء الكامل .

ولكن أى تغيير مناسب فى ظروف الشخص أو فى طبيعة تكيّفه، قد يؤدى إلى تحسّن ما .

أما الانهيار العصبى فهو أكثر غموضاً وأقل فهماً من الحالات العصبية بين الناس .

فالانهيار العصبى ليس له مدلول محدد . فهو ليس كياناً نوعياً، كما أنه ليس نوعاً محدداً من السلوك . بل هو تعبير وقائى يستر وراءه جميع حالات عدم الانسجام التى بلغت درجة ملحوظة من الشدة .

وقد يكون الانهيار العصبى انهياراً بدنياً . وفى حالات كثيرة يدل الانهيار على حالة عصبية حادة من النورستانيا ، وربما كان هذا هو أكثر أنواع الانهيار العصبى شيوعاً .

كما أنه لا تزال توجد حالات أخرى يكون فيها الانهيار العصبى بمثابة الضيق أو السامة، ويُسْتَخْدَمُ كعذر للهروب من موقف غير سار .

وبالرغم من غموض معنى الانهيار العصبي ، بل ربما لسبب هذا الغموض ، أصبح يُشخّص في الغالب بواسطة أطباء . كما أصبح المرضى يطلقونه على بعض أنواع الصعاب التي تحتاج إلى تكيف أو انسجام .

وقد يعزو البعض الانهيارَ العصبي وغيره من أنواع التصرفات الملحّة الشاذة إلى الإرهاق في العمل . فقد نسمع أحياناً في وصف أمراض بعض الطلبة هذه العبارة « لقد أرهق نفسه في الدرس وكدّ ذهنه » .

إن هذه العبارة مضللة وكاذبة في أساسها . ولكن قد يحدث في حالات قليلة جداً أن يُضعِف الإرهاقُ الحيوية في الإنسان ، فيجعله غير قادر على التكيف أو الانسجام عندما يواجه إحدى المشاكل المحيرة المربكة .

فإذا سبّب الإرهاقُ الأرق أو صرف الشخص عن التمرينات العادية أو أفقده شهوة الأكل في مواعيده المحددة ، فيجب أن نبحث عن هذا الضعف الجسمي الذي لم يسبّبه الإرهاق بل سبّبه إهمال الصحة الجسمية .

وفي كثير من الحالات ، نجد أن العلاقة بين السبب والنتيجة ذات صفة متباينة .

فعندما يواجه التلميذ الاحتمال الحقيقي أو الخيالي لفشله في المدرسة ، فإن أول دافع يكيف به نفسه هو أن يعمل بهمة وجد . وفي معظم الحالات يصل إلى نتيجة فعالة ، ويزول من طريقه هذا العائق .

فإذا لم تستطع المذاكرة الجدية أو العمل المتواصل أن يجتث الخوف من الفشل ، فإنه يستسلم لليأس ويركن إلى نوع من التصرف الشاذ فيصبح شخصاً قلقاً يقال عنه « إنه مصاب بالانهيار العصبي . »

ويُلاحَظُ هنا أن الإرهاق لم يكن السبب في الانهيار العصبي هذا ، وإنما الانهيار العصبي المزعوم هو رد فعل للفشل في الحصول على الانسجام .

ومن الطبيعي أن يعتقد الإنسان أن الانهيار العصبي سببه الإرهاق . فإن هذا مَـدَّةُ عَـاةٌ للاحترام وإدخال السرور عليه . كما أن تبرير هذا الاعتقاد يساعد كثيراً على دعم هذه الأكذوبة . وعادة لا يكون الإرهاق بل القلق المتزايد هو سبب الانهيار العصبي الذي هو في الأصل استجابات أو تصرفات انفعالية مُـلِحَّةٌ شاذة .

إن جوهر المسألة ينحصر في الشخص نفسه لا في

الاضطراب الذى يصيبه . فى كل حالة يحار فيها عقل الإنسان ،
يمكن أن نوجّه إليه هذه الأسئلة .

- أى المواقف لا يكيف نفسه لها بنجاح ؟
 - أى الوسائل يتبعها وهو يقوم بهذا التكيف الجزئى ؟
 - أى العوامل التى استمدها من تجاربه أو تعليمه قد قادتة
إلى السلوك الذى هو عليه الآن ؟
 - كيف يمكن أن يصل إلى درجة أفضل من التكيف ؟
- فإذا أمكن إجابة هذه الأسئلة ، أمكن فهم الشخص وسهّل
حل جميع مشاكله .

الفصل الثالث

نموذج لحالة عصبية وعلاجها

الآن ، وقد استوعبنا تلك الحقائق التي وردت في الفصلين السابقين ، دعنا نحاول فهم حالة شخص عصبى عادى وننظر أولاً إلى أولئك الناس – الذين قد تكون أنت أحدهم – ممن ليست لديهم أية فكرة عن أن ما بهم هو عيب عقلى وليس نقصاً جسياً على الإطلاق ؛ إذ أنهم شديداً الاعتقاد فى أن مصدر شكائهم جسمى محض . فقد يكون هذا المصدر فى اعتقادهم المعدة أو الكبد أو الأمعاء .

وسنورد هنا قصة أحد هؤلاء المرضى كما رواها هو عن نفسه – وقد تجد فيها قصتك أنت نفسك – قال للطبيب : « عندما أهب من نوى أشعر بطعم غريب فى فمى ، كما أشعر بالتعب ، فلا أقوى على هضم شىء . فجميع أنواع اللحوم تتعبنى . لذلك امتنعت عن أكلها . وأشعر الآن أن السمك الذى اعتمد عليه فى غذائى اعتماداً كبيراً يسبب لى نفس الألم . وكل ما أستطيع تناوله هو « الكريمة » وبعض الأشياء الأخرى

كطعام البنجر . كما أنى لا أقوى على مزاوله عملى . وعندما آوى
إلى فراشى أشعر بتعب شديد فيستعصى على النوم » .

إن هذه قصة شاب شاحب اللون يشكو الهزال ، ولكن
الفحص الدقيق أثبت أن أعضاء الجهاز الهضمى ليس بها أى
خلل البتة . فعدته تفرز العصارات المعدية ، كما أن حركاتها
عادية . ومجرى الطعام إلى الأمعاء سليم جداً اللهم إلا أن جدران
الأمعاء قد تراخت بعض الشيء بسبب عدم قيامها بعمل كاف .
أما الكبد وكيس المرارة فهما عاديان . كذلك الكليتان .

وبعبارة أخرى فهو من الناحية العضوية فى حالة صحيحة
جيدة . غير أن الشاب يضح بأنواع الشكاوى .
وطبيعى أن المشكلة فى عقله لا فى جسمه .

فأعصابه هى المتعبة . وجوهر هذا التعب راجع إلى عدم
الثقة فى نفسه . فالشاب ليس لديه الشعور بالقوة ولا الثقة فى
نفسه ولا فى قدرته على القيام بواجباته أو الاحتفاظ بصحته ؛
بل استهدف للقلق واستبدت به الكآبة والحزن . وتدور أفكاره
كلها حول الفشل والفقر والمرض . فهو يعجب أحياناً كيف
أن إنساناً مريضاً مثله قادر أن يحيا تلك الحياة ؟

فإذا أخبرته بأنه ليس به شىء ، فإنه لا يصدقك ، بل يفقد

ثقتك فيك ، ولكن إذا ما أخبرته أنه يوجد شيء في أعضائه وأن المشكلة كلها تنحصر في عقله وفي أعصابه التي تحتاج إلى علاج ، فإنه قد ينصت إليك في شيء من الأمل والاطمئنان . عليك إذن أن ترسم له طريقاً محدداً من طرق العلاج التي تؤدي إلى تقوية إرادته وتعلمه كيف يُقْلَعُ عن تأملاته الكثيرة وكيف ينجو من أفكاره الحزينة ، وسرعان ما تصبح الدنيا حوله أكثر إشراقاً وبهجة .

فالأمل يطرد اليأس ، وتحل البهجة مكان الكآبة . كما يحبب إليه النوم الصحي في الليل بعد أن كان يمضي سحابة يومه في خوف وقلق بالغين منه .

هذه هي الروح التي يجب أن تكون عليها وأنت تقرأ هذا الكتاب ، فافرضاً أنك أحد هؤلاء المرضى الذين نكتب عنهم . فلتستوثق من نفسك ولتتحقق تماماً أنك سليمٌ معافٍ من الناحية العضوية ، أو فلتُخْبِرِ عقلك الباطن أنك سوف لا تقاسى بعد ذلك من تلك الأفكار الحزينة القلقة ، وأن جهازك العصبي كله يفيض قوة وحيوية .

وقد تعجب لمقدار التحسن الذي تشعر به بعد تناولك الجرعة الأولى من هذا الدواء العقلي العجيب .

ومن الطبيعي أنك لا تصل في الحال إلى درجة الكمال من الناحيتين الجسمية والعصبية . ولكن التحسن يبدأ في الحال بمجرد ما يستعيد المريض (أو الضحية) ثقته في نفسه ، وعندما تنجح في أن تجعله يعتقد أنه سوف يشفى .

فعندئذ سيدرب عقله وإرادته على تهذيب نفسه ، وسيعرف أنه يستطيع السيطرة على عقله ، وسيحقق بنفسه من سلامة جسمه وسيعلم كيف لا يقيم وزناً كبيراً لطعامه فيأكل هذا وينصرف عن ذلك كما يحلو له مؤكداً لنفسه أن أى طعام سيتناوله سيهضمه بسرعة وليس له أن يقلق إذا كانت أمعائه تشتغل أو لا تشتغل ، كما أنه سيعلم أن صحته تتوقف على أفكاره لا على وظائفه الجسمية . علينا أن نرشده إلى الطريق الذى يتخلص به من الأفكار الحزينة بأن نوجهه إلى طريق سهل بسيط يستطيع أن يمارسه في حياته اليومية ، وسيعلم شيئاً فشيئاً كيف ينظر إلى نفسه كرجل يجب أن ينجح وأن يتمتع بالصحة والبهجة والمرح .

فإذا استطعت أن تجعله يعتقد أنه رجل من هذا النوع فإنه سيغرس في عقله الباطن النوازع التى ستقوده حتماً إلى تحقيق ذلك الهدف الأسمى الذى يريده لصحته من القوة والسلامة .

إن الفكر يصبح عادة ، والعادة تعمل بدورها على تحديد السلوك الذى يكشف عن نفسه حتماً فى صور إيجابية طارئة .

إن تحويل كتلة تعسة من الأعصاب إلى شخص سعيد مبتهج ليس بمعجزة ، بل هو النتيجة المنطقية لاستخدام معرفتنا استخداماً سليماً . وهى أن عقلنا الباطن قابل للإيحاء وأن ذاكرته لا تخونه وأنه يمكن للإرادة أن تسيطر عليه ، إرادتك أنت نفسك ، وعلى هذا الأساس يستطيع الطبيب أن يعالج مثل هذه الأعصاب .

وعلى هذا الأساس أيضاً تستطيع أنت متى تعلمت الإيحاء الصحيح أن تشفى نفسك إذا نُكِبْتَ بمثل هذه الحالة التعسة .

فبعد أن تؤكد للمصاب أن أعضائه سليمة قدّم له هذه التمرينات العقلية التى تحمل العلاج فى جُمْل بسيطة ... يدع يؤكد لنفسه :

- الآن سأتخلص من إرهاق أعصابى .
- إني رجل صحيح الجسم .
- ما علىّ إلا أن أقوى إرادتى وسرعان ما أتخلص من آلامى وأوجاعى . إنه ليس فى داخلى ما يبرر وجود هذه الأوجاع .

- إلى ناجح وأستطيع أن أكون ناجحاً في الحياة .
 - إلى قوى وواثق من نفسى وسأظفر بما أريد .
 - إلى أستطيع أن أظهر تقدماً سريعاً فى عملى .
 - أما فى الحياة الاجتماعية فإن النجاح والشهرة فى انتظارى
- دعه يفكر فى هذه الكلمات كل يوم ، بل دعه يعتقد بصحتها فى قرارة نفسه ، وعليه أن يطرد أية فكرة حزينة أو غير سارة . وليقرأ كل يوم فى كتاب يجلب له البهجة والسرور ولو بضع دقائق . وعليه أن يمارس فى حياته اليومية التحدث إلى شخص ما فى رقة وعطف .

إذا فعل هذا فإنه سوف يجد أن عمله هذا — لا سيما إذا بذل فيه بعض الجهد — سيكفل له الرضا والإشباع ، وسيقبل على الحياة بعد أن كان بـَرمًا بها ، مدبراً عنها .

إن مثل هذا المريض العصبي الذى نحن بصددده الآن يكون عادة مستعداً لأن يصف متاعبه إلى الطبيب . ومن الممكن أن تتحقق أنت بنفسك من صدق هذا القول ، إذ أنه من حسن الحظ لا توجد صعوبة فى حمل المريض على الكلام ، فإذا ما شجعناه على أن يتحدث فى حرية كاملة عما يشعر به وعما يخشاه ، وإذا ما سأله الطبيب — من وقت إلى آخر — سؤالا مباشراً ، استطاع الطبيب أن يكشف عن الخوف الكامن

والقلق الدفين ، وهما السبب الحقيقي في اضطرابه العصبي .
 إن الاعتراف مفيد للنفس . وهو أكثر فائدة لنفس
 الشخص العصبي ، إذ يستطيع الإنسان عن طريق هذا
 الاعتراف أن يرى مصدر الاضطراب وأن يدل المريض
 عليه . فتي أيقن المريض أن مشكلته عقلية خالصة ، ومتى
 وقف على الطريقة التي نشأت عنها تلك المشكلة — وستعرف
 هذا جيداً عندما تفرغ من قراءة هذا الكتاب — انبعث فيه
 الأمل وأقبل في حماس على الخطوات التي تمكنه من التغلب
 على تلك المشكلة .

فقد يكون الاضطراب العصبي في بعض الحالات نتيجة
 مباشرة لحادثة أو صدمة أو مرض حاد . إننا نبشر المريض
 في مثل هذه الحالات أن علّة شكوّاه يمكن أن تُعرض أمامه
 في وضوح . وسيتبين هو أنه ما دام السبب بعيد القيدم، فكذلك
 المرض يجب أن يخفى ويزول .

إن الراحة العقلية التي يمكن الحصول عليها عن طريق تغيير
 البيئة أو المكان أو الظروف القائمة ، أو عن طريق الحياة الهادئة
 مع رفيق لطيف هي في الغالب أفضل أنواع العلاج لمثل هذه
 الحالات العصبية مع ، الحرص على أن يكون الطعام بسيطاً

مغذياً كافياً . على أن الهواء الطلق المجدّد - مع الإقلال من التمرينات العنيفة - أمر مرغوب فيه .

فإذا كان النوم مستعصياً عليه فيجب أن يستشير الطبيب لينصح له بالجرعة المناسبة التي تعيده إلى حالته الأولى من النوم في الليل . وعادةً ما يحتاج المريض إلى مقوّم عام يثير شهيته ويُبْعِدُ عنه السّامة .

وهذه وصفة مفيدة لهذا الغرض، إذا تناولها المريض ثلاث مرات يومياً بعد الأكل :

— روح النشادر العطري ١٢ وجم

— روح الكلوروفورم ١٢ وجم

— صبغة الجوز المقيي ٦ وجم

— ماء الكراويا ١٥ جم

ولكن أفضل أنواع المقويات هو أن نجعل الإرادة تقوم بعملها؛ فهناك إرادة للصحة كما توجد إرادة للقيام بأى عمل آخر .

والإرادة يمكن استخدامها للعقل والجسم معاً ، فهي ذات قيمة في الوقت والجهد . ولكن الأقساط التي ندفعها

أبقى وأدوم من غيرها في أية ناحية أخرى . وفوق هذا فإن هذه الأقساط تُدفع للشخص الذى يستثمرها . فعليك أن تفكر فيما يحدث عندما تبدأ في تطبيق الاقتراحات التى قدمناها سابقاً . فإنك تحاول إدخالها في عقلك وتقوم الذاكرة بتسجيلها حتى تصبح جزءاً من عقلك فلا يضيع منها شيء . ولكن قد يحدث بعد مضي أسبوع أو أكثر أن تجد أعصابك في نفس الحالة السيئة التى كانت عليها من قبل . فقد تقول إن هذه الاقتراحات لا أثر لها . وعلى هذا يصبح العقل ميدان معركة للآراء المتصارعة ؛ وهى آراء بعضها قوى وبعضها ضعيف . ومن الطبيعى أن يسيطر القوى ويمضى في عمله .

فما من شيء في عقلك إلا وهو حى فيه ، لأن أفكارك قد وضعت هذا الشيء هناك . فلو أنك قمت بتجميع المخاوف والشكوك عدة سنوات ثم وضعت فوقها نوعاً من الأفكار أفضل لمدة أسبوع فقط ، فأيهما أقوى وأيهما أكثر احتمالاً بالظفر والغلبة ؟ .

علينا أن نغلب الشر بالخير ونمضى في بث الأفكار القوية المشجعة يوماً بعد يوم أو أسبوعاً عقب أسبوع حتى تصبح في نحر الأمر قادرة بطريقة آلية على السيطرة على الأفكار غير

السارة ، حتى إذا ما أخذت تطفو شيئاً فشيئاً إلى قمة العقل بدأت الصعاب في الزوال وبدأت القوة يظهر أثرها . . .

إننا لا نقيم أحكامنا هذه على الوهم والخرافة بل على أساس سيكولوجى سليم . فإن كل فكرة نستمتع بها ذات قيمة سواء أكانت تلك القيمة طيبة أم غير طيبة . فإذا لم نقدّر النتائج اليوم فعلياً أن نلوم تفكيرنا السابق الذى بعث بهذه النتائج . ولكن ما دمنا قادرين على تغيير تيار أفكارنا ، فمن الممكن جداً تغيير مكان هذه الأفكار الخاطئة واستبدالها بأفكار أفضل منها . وبذلك تختلف النتائج تبعاً لهذا .

هذه هى النظرية . أما التطبيق فقد أثبت نجاحه آلاف الحالات . ومن الممكن لكل إنسان أن يكلف نفسه بعض العناء فى أن يساعد نفسه .

على أنه يجب أن نستخدم الطرق الصحيحة ، وأن نفهم فى الوقت ذاته الطريقة التى يعمل بها العقل . إذ أن المسألة لا تقتصر على طرح المؤثرات السيئة إذ يقال « إذا ما خرج روح شرير واحد حل مكانه سبعة أرواح » .

فعلياً أن نملأ عقولنا بالشيء المفيد النافع ليأخذ مكان الضار . ومن أجل هذا يجب أن نحفظ بكمية كبيرة من

الإيحاءات الإيجابية نخترنها في ذاكرتنا للاستفادة منها عند الحاجة .

إن العقل الواعي قد أعيدَ لمعالجة موضوع واحد في وقت واحد. وهذا هو معنى التركيز ، أما إذا تطاير العقل ووزع على أشياء متعددة فإنه لا يأتي بنتيجة قط . إن كل تدريب عقلي يؤكد ضرورة تركيز الانتباه على شيء واحد في وقت واحد . وهذا هو سر النجاح والتفوق .

وعلى هذا يجب أن تمارس في عملك اليومي أو في حياتك العادية عملية تركيز الانتباه على شيء واحد مستبعداً ما عداه من الأشياء الأخرى . وهذا من شأنه أن يتيح لك تركيزاً حاداً موجهاً لشيء واحد يساعد على أن يجعل حياتك أفسح مجالاً وأخصب مرتعاً .

فعليك أن تقرأ فقرة في كتاب أو تستمع إلى حديث في الإذاعة مستخدماً في ذلك عصارة تركيزك ، ثم تكتب خلاصة ما سمعت أو قرأت ، وبهذه الطريقة تختبر نفسك ، وسرعان ما تكتشف ما إذا كانت قوة تركيزك هذه جيدة أو رديئة . فإذا كانت رديئة فعليك أن تبدأ بأيسر الصعاب قبل أن تحاول التغلب على أضعفها . وعليك أن تمنحني في نهضة العرب

هذه الممارسة حتى نتبين أن هذا التركيز قد أصبح -أداة مُكْتَسَبَة وأنه يعمل من تلقاء نفسه .

أما النقطة الأخرى فهي أن تكف عن معالجة الجانب السلبي للأشياء ، فتكف عن علاج أعصابك ومحاربة مخاوفك والتغلب على نزواتك وأهوائك .

قد تلوح هذه نصيحة غريبة في بادئ الأمر . ولكن سرعان ما تدرك الهدف من وراء ذلك . فبدلاً من محاربة حالاتنا العصبية علينا أن نبني جوانب إيجابية من الشجاعة والراحة والاطمئنان ، ومتى توفّر لنا الكثير من هذه الجوانب فإن حالاتنا العصبية تبدأ في الاختفاء ، كما تختفي الظلمة عندما ندير مفتاح النور . فبدلاً من أن نحارب المخاوف نبني الثقة ، ومتى قويت فينا هذه الثقة لم نعد نخشى الجلوس متى كانت الفكرة الغالبة فينا هي أن نقف . إن المزاج الثائر يهرب من النافذة إذا ما دخل المزاج المنبسط من باب العقل . وإن سيطرة نزوة غاضبة تخلق مزاجاً ثائراً بينما الطبيعة الطيبة تكفل البهجة والراحة ، وجميع الأشياء المسيطرة تتجمع عن طريق الفكر وتُسَجَّلُ عن طريق الذاكرة .

والآن بعد أن مارسنا التركيز على شيء واحد في وقت واحد

مستبعدين ما خلا ذلك الشيء ، نجد أننا إذا وجهنا العقل إلى التفكير الإيجابي المحدد فإنه لا يمكن في الوقت نفسه أن ينحرف إلى التفكير السلبي المريض ، وبذلك يقوم العقل بتسجيل تلك الأفكار المتجمعة التي تعمل على فائدتنا والتي ستصبح فيما بعد بعض هذه المسيطرات أو الموجهات . ومتى أصبحت موجهةً أمكنها أن تحدد تصرفاتنا ، وسيطرت على حالاتنا العقلية ونزواتنا . فإذا حاولتُ أيةُ فكرة ضارة أو نوبة خوف أو شك أو فكرة تحمل التعاسة والفشل أن تلج عقولنا سارعنا إلى طردها كما ندير مفتاح النور ، وركزنا انتباهنا على ما يناقضها مستخدمين في ذلك إيجاء قوياً وإيجابياً يطرد من تلقاء ذاته كل فكرة عن الصعاب أو الفشل ، ثم نمضي في هذا حتى تتقوى فينا تلك العادة فتؤدي عملها من تلقاء ذاتها .

فإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى وجدنا أن هذه الممارسة تقدم للتفكير حافزاً قوياً يساعد على التغلب على الكثير من الصعاب الهينة التي كان يمكن أن تقفنا في مكاننا أو تطيح بنا إلى الوراء . هذا الحافز يضمنى على العقل لإرادة ويعطى الشخصية قوة ويتيح للإنسان حياة جديدة .

إننا نعرف أولئك الناس السليبين الذين ليس لديهم حافز

من أى نوع ممن يتراجعون أو ينكصون أمام أنفه الصعاب ، هؤلاء الناس الذين ليست لديهم أية قوة دافعة على الإطلاق تجعلهم يتلونون على حسب الظروف التى يوجدون فيها أو على حسب الناس الذين يتعاملون معهم ، هؤلاء الناس ممن يعوز حياتهم البريق ، ينهون فى أغلب الظن إلى اضطرابات عقلية أو عصبية لأن الذاكرة تعمل دائماً على اختزان وصنع الموجهات الضعيفة وليدة أفكارهم المريضة .

والآن وقد رأينا أن العقل والجسم يتكونان بدرجة تمكّنها من تكوين عادات متباينة ، يجب أن ندرك أنه إذا لم نسلّك بهما الطريق السوى لتكوين العادة الطيبة فإنهما لا شك سيكونان العادة السيئة على أرجح الظنون .

وبعبارة أخرى إذا لم نكف أنفسنا مشقة تنمية السيطرة على أنفسنا وكبح جماحنا ، سيطرت علينا عاداتنا واستعبدتنا أعصابنا ورضخنا كذلك لمن هم أقوى منا إرادة من نصادفهم فى حياتنا . ولكننا إذا شحنا العقل بالأفكار الشعورية ذات الطابع المشجع المرغوب فيه فإننا ننمى بذلك الجهاز السمبتاوى ونجعله يسلك السبيل التى تتيح له الصحة والهدوء العصبي . وهذا معناه أننا نحتاج إلى حافز يجرف سريعاً الكثير من تلك

الصعاب الصغيرة ويمكننا من التغلب على الصعاب الكبيرة .
ولكن هذا أمر يختلف تماماً عن مهاجمة ومحاربة المخاوف
والشكوك ومظاهر العجز والقصور بطريق مباشر وجعل عقولنا
ميداناً لمعركة أشد اختلاطاً وارتباكاً عن ذى قبل .

ما من شيء يمنع هذا البناء الإيجابي الذى لا يحتاج إلا إلى
التركيز الذى يأتي عن طريق الإرادة الموجهة . فإذا تأكدنا
من أن الذاكرة ماضية فى تحقيق شيء ما عن طريق تجمعها
إلى موجّهات ، توقعنا أن نحقق شيئاً عظيماً أيضاً عن طريق
اختيارنا للنوع المناسب من الأفكار التى تسجلها تلك الذاكرة .
وهذا يصل بنا إلى مستوى جديد من الحياة العقلية يظهر
أثره فى ذلك المستوى الاسمى من الصحة العقلية والجسمية وفى
التحرر من جميع المشاكل العصبية .

الفصل الرابع الكبت الجنسي

والآن بعد أن استعرضنا نموذجاً من نماذج أمراضنا العصبية، تعالوا بنا نستعرض مظهراً آخر من هذه الأمراض هو الكبت الجنسي .

ويحسن بنا قبل أن نمضي في ذلك طويلاً أن نذكر بادئ ذي بدء أن هناك طرقات متباينة تسلكها الأعصاب لتكشف عن أعمالها . ولقد قدّمنا فقط مثالا واحداً . ولكن لكي يستطيع القارئ تطبيق أية نصيحة نافعة يجب أن نقدم له أمثلة أخرى حتى إذا ما عجز عن رؤية حالته الخاصة في المثال الأول فقد يجد علامات هذه الحالة في مثال آخر .

إن الضعف العصبي قد يكشف عن نفسه في نواح عدة . فبعض الأشخاص العصبيين لا يقوون على الجلوس في مكان مغلق فهم يخشون « النفق » مثلاً كما يخافون المسرح أو صالات الرقص . وهناك آخرون على النقيض من هؤلاء يخافون الأماكن الفسيحة ولا يشعرون بالأمن إلا وراء جدران منازلهم أو داخل

عربة سكة حديدية أو سيارة .

ويشكو البعضُ الصداغَ المستمر، بينما يتألم الآخرون من أعينهم . ويخشى البعض حقيقة أمرهم من عجزهم عن القيام بالعلاقات العادية بين الرجل والمرأة . وفي مثل هذه الحالات يكون مصير الزواج انهياراً عصبياً كاملاً .

في جميع هؤلاء نجد في عقل كل مريض سبباً لهذا القلق وإن لم يكن شاعراً به . فمن العبث أن نقول له « لا تقلق » . كما أن واجب الطبيب هو أن يحفر في أعماق ذلك المريض ليستخرج السبب الحقيقي الدفين للقلق؛ وعندئذ يتمكن من التحرر منه .

أما أولئك الذين ينهارون تحت حالة الهياج العصبي أو الاضطراب إبان انتظارهم ليوم الزواج ، فليس من الضروري أن يكون هذا راجعاً إلى نقص في الناحية الجنسية بأية حال من الأحوال . ولكن المسألة كلها تنحصر في أن جهازهم العصبي عاجز عن أن يسير في مستوى معين من الإجهاد أو الضغط مما لم يسبق لجهازهم العصبي أن ألقى عليه مثله .

إن أول اختبار عصبي واجهوه أو واجهه جهازهم العصبي

كان اختبار الشكوك والخاوف والهموم التي تُلاقى على الرجل ذى الضمير الحى أو المرأة الطيبة عندما يواجهه هو (أو هى) الزواج . فإذا تأجلت حفلة الزواج وقام طبيب بمعالجة المريض فأعاد على سمعه الكلمات المشجعة والشروح المطمئنة فسرعان ما يهدأ بال المريض ويستعيد ثقته فى نفسه ويتحقق الزواج الناجح .

وعلى هذا نرى أن الغريزة الجنسية تلعب دوراً هاماً فى حدوث الاضطرابات العصبية . وغالباً ما نجد أن مصدر الاضطرابات هو رغبات جنسية مكبوتة .

وإن تثقيف الأطفال وإلمامهم بالشئون الجنسية قد بدأ يستقر على أساس علمى . فيجب ألا نترك الطفل حتى يعرف هذه الأشياء عن طريق المصادفة أو بوسائل سيئة غير مرغوب فيها . إن حقائق الطبيعة يجب أن تُقدَّم للطفل فى صور بسيطة كريمة طبيعية ، متى اقترب من مرحلة البلوغ .

إن كل إنسان عادى يرث غرائز جنسية ، وهذه الغرائز هى فى الواقع من أقوى ميراثه ، والحياة الاجتماعية المتحضرة تتطلب من هذه الغرائز ألا يمارسها صاحبها على نحو غير لائق بل

يكبحها ويكبتها طبقاً لقوانين المجتمع المتحضر . لذلك نشأ في كل شخص منا نوع من الصراع بين غريزته الطبيعية والسيطرة المكتسبة المفروضة عليه .

إننا نعيش بالقدوة والمثال ، وبعض هذه الأمثلة التي قدمت للأطفال الصغار عن الأمور الجنسية هي في أغلب الأحيان السبب في تلك الحالات العصبية التي يقاسون منها اليوم . وكلنا يعرف أن تحليل المشاكل الجنسية هو تحليل يجريه داخلياً كلُّ رجل عاды أو امرأة عادية . ذلك لأن الغريزة موجودة في الغالب من وقت ولادته وأن العقل المتسائل المستطلع عند الطفل الصغير يهوله بل يذهله ذلك الشيء كله إذا تركَ ليعرف الغريزة الجنسية قبل أن يصل إلى المرحلة التي يكون فيها قادراً على فهمها وإدراك أسرارها .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الثقافة الجنسية أمر مرغوب فيه عندما يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ ، وهذه الثقافة مرتبطة بتثقيف العقل صحياً ، وبعبارة أوضح إن هذه الثقافة الجنسية تعين الطفل على أن يفكر ويناقش ويتحكم في عقله ، وبهذا يطرد الأفكار والرغبات الجنسية المكبوتة .

ولكن المسألة مع الطفل الصغير تأخذ شكلاً مغايراً لهذا

كل المغيرة . فإنه من الإجماع أن نسخر من الغريزة الجنسية أمام الأطفال أو أن نعالجها في شيء من الاستخفاف ، فإن الغريزة الجنسية تستيقظ وسرعان ما يبدأ الفتى في التفكير في الفتاة ، كما تبدأ الفتاة في التفكير في الفتى ، ثم يبدأ الاثنان يتحدثان عن هذه المسائل أحدهما إلى الآخر ، وكلما تقدم بهما السن اشتدت فيهما الرغبة التي لا يستطيعان لها فهمما والتي يكتبانها بطبيعة الأمر . وهنا يبدأ العقل الباطن يعمل . ثم ينتقل الفتى والفتاة من طور الطفولة إلى طور الشباب وأخيراً إلى دور الرجولة أو الأمومة . وهما في أثناء ذلك تعلق في أذهانهما صور قديمة وأحاديث عارضة ، وتظل هذه الأشياء مستقرة في العقل الباطن لا يمكن محوها أو إضعافها .

ثم إن هؤلاء الفتيان والفتيات لا يحظون بالشروح المحددة التي تلقى ضوءاً على مثلهم العليا النامية ، بل هم في كل هذا الوقت يكتبون بعض الأشياء التي تُعدّ الأساس الأول الذي تقوم عليه حياتهم ، وذلك لأنهم لم يزودوا بالخروج الصحيح الذي تتسرب منه تلك الأشياء عن طريق الناصح الأمين الذي يحنو عليهم في عطف وحذب . فلا عجب أن ينحرف هؤلاء الشبان إلى أناس على جانب كبير من العناد وسوء الطبع ،

ولا عجب أيضاً أن يركنوا إلى العزلة والانطواء على أنفسهم . والسبب في هذا هو أنهم يخلّفون وراءهم شيئاً يشعرون أنهم في حاجة إليه ولكنهم لا يستطيعون الحصول عليه بسبب القوانين الاجتماعية القائمة التي فرضها المجتمع ، هذه القوانين الاجتماعية توضع لصالح المجتمع طبعاً وتهدف كلها إلى أن يسلك الجنس طريقه العادي الطبيعي وهو الزواج . ولكن الحاجة لمثل هذه التنظيمات الاجتماعية يجب أن يفهمها الشاب فهما واضحاً .

ولكى نقضى على الجانب الأكبر من الاضطراب العصبي عند الشاب يجب أن نحفظ عقل الطفل بعيداً عن جميع هذه الأشياء حتى يصل إلى السن المناسبة وهي مرحلة البلوغ حين يكون قادراً على الاستماع إلى خير النصائح . وبذا يتعلم كيف يسيطر على عقله الباطن .

يجب أن نشبع حب الاستطلاع الطبيعي في الطفل بأن نقدم له بعض الحقائق البسيطة عن ذلك التاريخ الطبيعي . أما المرض العصبي الذي سببه الكبت الجنسي فهو حلقة مرذولة بغیضة لأن الشاب العصبي هو الشخص الذي لا يستطيع أن يسيطر على غريزته الجنسية أو يكتبها إلا بصعوبة غير عادية . كما أن جميع أعراض هذا الاضطراب العصبي ترجع في

الغالب إلى ما يقاسيه من آثار هذا الاضطراب. فإذا ما تكشفت له تلك الحقيقة شعر بارتياح كبير وأصبح الشفاء من هذا الاضطراب مؤكداً وفي متناول يده بعد أن أضحي السبب الخفي الغامض معروفاً لديه .

وفوق هذا فيجب علينا أن نتذكر دائماً أن المدنية ذاتها مرض عصبي أو اضطراب عصبي ، فهي تدفع كل واحد منا في اتجاه دائم لأن نهى أنفسنا أو نلائمها على حسب بيئتنا . ولكن هذه الملاءمة أو المواءمة لقوانين الجنس ليست سهلة دائماً . إن الشخص العصبي هو الذى يصاب بانهيار فى بعض مراحلها ولكنه يستطيع أن يصلحَ هذا الانهيار عن طريق اكتساب فن السيطرة على عقله .

والخطوة الأولى نحو هذه الغاية هي أن يخلّص عقله من تلك السموم التى تنوش عقله وتفقده صوابه وأن يُجَرِّى مُحَادَثَةً حرةً مع طيب على جانب كبير من الإدراك والعطف ، وبذلك يستطيع الوقوف على تلك المخاوف والشكوك والرغبات التى كانت السبب فى انحرافه والى لم يشعر بوجودها شعوراً ملموساً واضحاً ؛ فتطفو تلك المخاوف على سطح عقله بعد أن كانت

مستقرة في القاع . وسنورد هنا قصة أحد أولئك العصبيين كما رواها للطبيب المعالج . قالت السيدة المريضة :
 « كنت دائماً طفلة عصبية تعاودني دائماً الأحلام المزعجة كما كنت أخشى الذهاب إلى الفراش ، ثم استولى على شعور الخوف من الاختناق ، ولذلك لم أستطع تحمل السفر في قطار تحت الأرض . كما كنت أخشى أن أموت محترقة ، كذلك كنت أقلق بسبب أشياء كنت قد ذكرتها لغيري من الناس بينما لم يكن في هذه الأشياء ما يدعو للقلق البتة . ولطالما استبد بي كابوس بأني غريقة » .

وإليك قصة رجل مريض آخر . قال إنه فقد القدرة على استخدام أطرافه بسبب إحدى الغارات الجوية ، إذ أثرت الصدمة في عضلات بطنه ، كما أصيب بالانفازا حوالى خمس عشرة مرة وأصيب بروماتزم عضلى والتهاب في الأمعاء . كما فقد أعصابه كصبي . وكان أبوه يضربه بالسوط بسبب مخاوفه التي كانت تتنابه كل ليلة . فكان يخشى الذهاب إلى منزلة في الظلام كما كان يلبس منظاراً بسبب ضعف أعصابه . والآن نعرض لحالة سيدة كما ترويها بنفسها عكسها تفيد قارئات هذا الكتاب فيجدن في قصتها هذه صورة لحالهن

العصبية . فبعد محادثة على جانب كبير من المودة والعطف أمكن الكشف لتلك المرأة عن المخاوف الدفينة التي ترجع إلى أمها والتي بدأت تتابها في مرحلة البلوغ . وكانت هذه المخاوف أساس اضطرابها العصبي . فبمجرد أن شعرت أنها قد وجدت شخصاً يستطيع فهم شكواها فهماً صحيحاً ، شخصاً يستطيع الاعتماد عليه ، أخذت حالتها تتحسن ، ولم تمض بضعة أسابيع حتى أصبحت شخصاً معافى سعيداً . وإليك قصتها . كما سجلتها .

« منذ أن تزوجت وأنا أقاسى من أعصابى ، ولو لم يتح لى خير زوج فى العالم ممن يعنى بى أشد عناية ويتحمل جميع شكايانى من المرض لكنت اليوم بعيدة عنه ، أو كان قد هجرنى . فإن الرجل العادى لا يستطيع أن يتحمل حالتى إذ أن المرض لم يجعل منى زوجه له على الإطلاق .

« وكان أول ما شعرت به هو ذلك الصداع الخفيف الذى لا أقوى على وصف فظاعته ، بل يكفى أن أقول إنه حطمنى حتى إنى أحسست أن نهاية العالم قد اقتربت — ولم يتركنى ذلك الصداع الذى لا مثيل له ثمانى سنوات . ولم يقتصر الأمر على هذا بل كنت أحس بنوع من الاهتزاز الداخلى ، نوع من الحالة العصبية الداخلية ، كما كنت أحس أن جميع

أعضائي تهتز .

« فلما ذهبت للطبيب أخبرني أن أعصابي متوترة . غير أنني كنت قلقة . . . ولم أكن أقوى على تحمل أى شىء . إذ لم تكن لدى القوة الكافية لأن أمشي إلى محطة « الأوتوبيس » ، أو أعود منها إلى بيتي . وكنت أحياناً أستيقظ فى الصباح وأنا أشعر ببعض الراحة . ولكنى لا أكاد أفرغ من إعداد الإفطار لزوجي وأبدأ عملي فى الصباح حتى أشعر أن قواي كلها قد خارت ؛ ولا ينتصف اليوم إلا وقد أصابني الانهيار ، كما كان عندى إمساك شديد لدرجة أنى كنت أعتقد أنى لا أستطيع أن أبرز أسبوعاً كاملاً إن لم آخذ « مليناً » . لذلك جربت جميع المسهلات المعروفة حتى أن زوجي كان يقول لى دائماً « إذا ما اكتشِفَ نوعٌ جديد من أنواع المسهلات ، أسرعَ إليه وكنتِ أول مَنْ جَرَّبَه » كما كنت أقوم بعمل « حقنة شرجية » كل يوم أو يومين . فإن تهاونت فى هذا قاسيت من الإمساك فوق ما أحتمل .

« وقد حدث أن اضطررت للنوم على ظهري مدة ستة أسابيع لا لشيء إلا لأنى أهملت نفسى .

« ويقول لى بعض الأطباء « أن ليس فى الأمر شىء » ،

ولكنى أعرف أن هذا أمرٌ ثقيل لا يُحتمَل . فقد قاسيته بنفسى ، هذا بجانب العرق الذى يتصبب علىّ ، ثم شعورى بالحرارة ثم بالبرودة . وهل حدثتك عن ذلك الشعور الغريب المثير للضحك الذى يسرى فى جانبي ومنه إلى ساقى ، وقد شعرت يوماً أنه يسرى إلى أعلى العامود الفقرى ؟ . إنى أعتقد أن هناك عصباً منحلاً أو شيئاً من هذا القبيل .

« ولم يستطع أحد من الأطباء علاج هذه الحالة . فقد ذهبت إلى عشرات الأطباء ، كما حاولت علاج هذه الحالة عن طريق «المجبرين» أو علاج الداء بنفس الداء (!) . كما أشار على البعض بمحاولة الشفاء بالروحانيات ، ولكنك لا تستطيع أن تقنعنى أن كل هذه الأشياء إنْ هى إلّا خيالات أو أوهام لا تعيش إلّا فى عقلى .

« إنى أعترف أنى عصبية . ولكن لا بد أن يكون لهذه الحالة سبب ما . وكل ما أدريه أنى لم أشعر بهذه الأشياء قبل أن أتزوج »

إن مثل هذه السيدة يمكن أن تكون مثلاً طيباً للذعر

الذى ينسجه وتصنعه الأعصاب ، فإن هذه المرأة لم تدرك قط أن متاعها كلها كانت عقلية في جوهرها ولُبها ؛ وأن هذه المتاعب نبتت وترعرعت وهي تمارس إحدى تجاربها الخفيفة المتصلة بالأمور الجنسية التي مرت بها وهي فتاة صغيرة . ولكن هذه الحقيقة لم تتضح تماماً إلاّ بعد التحدث إليها حديثاً مشبعاً بالعطف والمودة ؛ وبالتالي أمكن تطبيق العلاج الصحيح . وهذا العلاج ينحصر في أن نكشف للمريضة كيف أن جميع متاعها ناتجه من الخوف ، وكيف أن جميع المظاهر الجسمية كانت تحاول بطريقة لاشعورية الهروب من ذلك الفرع أو الخوف الدفين والحصول على العطف والتعزيد .

ثم أخذت الطمأنينة تسرى فيها شيئاً فشيئاً ؛ وما لبثت أن استعادت ثقتها في نفسها . وبعد أن تحدث الطبيب إلى زوجها وبَصَرَه بحالتها أخذت الزوجة تستمتع بحياة جديدة تفيض صحة وسعادة ، إلا أن الشفاء الكامل لم يتحقق لها حتى وضعت ابنها الأول .

ولأنه لمن العبث أن نحاول علاج هؤلاء الناس العصبيين بأن نقول لهم « لا تقلقوا » أو أنهم لا يشكون من شيء عضوى ، إذ أنهم لا يكفون عن الشعور بالقلق بمجرد أن نقول لهم

لا تقلقوا . ولكن متى قدّمنا لهم سبباً يستند إلى المنطق ، يهرر قلقهم ، وأن هذا السبب لا شعورى ، فعندئذ ينظرون إلى المسألة نظرة مخالفة .

إن الإيحاء يستطيع أن يؤثر فيهم ، فهم لديهم القابلية والاستعداد لأن يوحوا لأنفسهم بما يبعث فيهم الثقة والأمل ، وفي نفس الوقت يجب ألا نهمل العلاج الجسمى لأنه لا يوجد حد فاصل للتفاعل بين الحالات الجسمية والعقلية . فإذا طال الزمن بالعقل وهو على تلك الحالة من المرض فإن الجسم لا شك يتأثر تبعاً لذلك حتى يعتل هو كذلك .

وعلى هذا كان مرضى الأعصاب فى حاجة دائمة إلى أدوية مقوية وإلى نظام من التغذية مفيد وممارسة بعض التمرينات الجسمية والاستمتاع بالهواء الطلق .

فما لا شك فيه أن هذه الآثار الجسمية سيكون لها أثرها المباشر على الناحية العقلية . وهذه الإجراءات المتعلقة بالناحية الجسمية هى بمثابة « الشماعات » التى يعلّق عليها الطبيب إرشاداته وتوجيهاته ، أى أنه يستخدمها كعوامل مساعدة أو وسائل تُعينه على أن يثبّت فى عقل المريض—وهو يوحى إليه — الإيمان

القوى بالفوائد التي يجنيها من مزاوله هذه التمرينات التي تتيح له الصحة والقوة ، بل إن مجرد الاعتقاد في هذا فيه نفع كبير له ، إذ يعين المريض كثيراً على زيادة قوة التركيز عنده فيتشجع على أن يوحى إلى نفسه كل يوم ببعض تلك العبارات السالفة التي يصب فيها كل أفكاره وانتباهه .

ثم شجعت تلك المريضة على أن تقول لنفسها كل صباح « لقد ذهبتُ مخاوفى » - « إني في صحة جيدة » - « إني أحب زوجى » - « إنه طيب لطيف معى » . وكان لهذا أثر طيب فيها . مثل هذه العبارات متى ردها المريض بتفكير عميق وتأمل قوى كفيلة بأن تقدم له من العون والنفع ما لا يقدمه له . « جالون » من الأدوية !!

فلو أن حالتك العصبية كانت تُعزى إلى خوف جنسى أو كبت جنسى أو أنك وجدت أن الأعراض عندك شبيهة بأعراض تلك السيدة المريضة ، فإنك قد تسلك طريقاً طويلاً للشفاء التام ؛ فتقوم بتحليل عقلك ثم تتبع هذا بطرد مخاوفك ؛ وذلك بطرح جميع المؤثرات السيئة التي تعمل في عقلك الواعى والباطن .

فعلبك أولاً أن تنظر إلى الغريزة الجنسية نظرة معقولة

وأن تفهمها كما هي . فهناك غريزتان أساسيتان تشكلان الحياة وتكوّنان أساساً لنموها وبقائها . الأولى غريزة حفظ الذات والثانية غريزة حفظ الجنس ، ومن أجل هذا ، من أجل الأهمية الأولى لهاتين الغريزتين ، كفلت لهما الطبيعة نفوذاً وأثراً عظيمين . فإن الطبيعة ترى أن أهدافها تتحقق عن طريق أفراد ولو على الرغم منهم . ومن أجل هذا فقد زوّدنا بهاتين الغريزتين كميراث من الماضي البعيد . . . هذا جزء مما جهّزت به الطبيعة العقل الباطن عندما قدفتنا أرحام أمهاتنا إلى هذا العالم . ومع أننا حديثو العهد بالولادة إلاّ أن غرائزنا المتأصلة فينا ضاربة في العمر . ومن أجل هذا نجد المسرح قد أعيدَ للمعركة العظيمة بين تلك الغرائز الضاربة في العمر وبين حاجة الفرد للسيطرة عليها .

إن غريزة حفظ الذات تهددها عاملان هما الجوع والخطر . فالجوع يدفع الرجل البدائي لأن يبحث عن طعامه . ومن أجل هذا يكتسب مهارة وخفة في الصيد . ثم ينمى مهارته . ودهاءه فيما بعد ، بتسليطهما على الصعاب الطبيعية التي تواجهه ، . كما يدفعه الخطر إلى السرعة وحسن التصرف ، ثم توقع الشيء والحدّز منه مستخدماً في ذلك عقله وذكائه على مستوى عال .

هذان الحافزان قُصِدَ بهما تجنيينا الركود وحفظ حياتنا قويةً دافقةً تهدف دائماً إلى ظفر أكبر ونجاح أعظم .

أما الجنس فهو من الناحية الأخرى عامل إغراء وليس دافعاً ، فهو يقود الإنسان ولكنه لا يدفعه . فقد يكون شبيهاً بالضوء الذى يلمع ليلاً فوق الأرض المبتلة . ولكنه يؤدي غرضه المنشود بنجاح ، فهو يظل يجذبنا حتى تبلغ الطبيعة أهدافها التى رسمتها .

وعلى هذا كنا دائماً خاضعين لعاملى الدفع والجذب .

ويتضح من هذا أنه ليس هناك ما نخجل منه ، من أن يكون لنا مثل هذه الغرائز الأولية لأنها فى الواقع عادية جداً . كما أنها توجد فى جميع الناس سواء تبيّنها هؤلاء الناس واعترفوا بها أم لم يتبينوها ولم يعترفوا بها .

فهناك جاذبية طبيعية بين الجنسين ، وهذا أمر طبيعى إن هذه الثنائية الخالدة بين الذكر والأنثى كقطبي المغناطيس ، كل واحد مكتمل للآخر ، وليس من صالح الرجل أن يعيش وحده ، كذلك ليس من مصلحة المرأة أن تعيش وحدها .

ولكن يحدث أحياناً أن يضطرا لأن يفعلا هذا . وفى مثل

هذه الحالة يجب أن تَهْدَبَ الغريزةُ حتى تنهياً لذلك المستوى غير الطبيعي .

ومن ناحية أخرى نرى أن الزواج في ذاته لا يحل مشكلة الجنس ، لأن الغرائز حتى في الزواج يجب أن تُنظَّم وأن تعالج . إن مشكلة الجنس هذه مشكلة يواجهها جميع الناس إن عاجلاً أو آجلاً . والناس العاديون يعملون على تهيئة أنفسهم وملاءمتها لها . أما أولئك الذين يعجزون عن أن يكونوا على وفاق مع غرائزهم فإنهم يجدون أنفسهم في الغالب وقد لفهم المشاكل العصبية بسبب محاولتهم إهمالها أو كبتها .

إن القوة الجنسية هي دافعٌ خَالِقٌ محدّدٌ ومخرجها الطبيعي هو في إيجاد حياة جديدة . هذا المخرج يختلف كثيراً تبعاً للرجل أو المرأة ، فقد يأتي هذا الدافع عرضاً في حياة الرجل بينما نراه في المرأة قد أكمل دورته في بضع سنين حتى وصل إلى مرحلة الحمل والولادة والرضاع .

فإذا ما أنكرنا هذا المخرج العادي على الرجل أو المرأة فإن الغريزة تظل بعيدة كل البعد عن أن تخبو أو تنطفيء ، بل كثيراً ما يحدث أن تُفَصِّحَ الغريزة عن نفسها في صورةٍ مقلوبة بدلاً من ذلك المخرج الطبيعي .

ولكى نتجنب هذا ، كان من الضروري إتاحة الفرصة المفيدة لاستخدام هذا الدافع الخالق . وهذا ما يُطْلَقُ عليه « إغلاء الغريزة » . فإن أى نوع من المجهود الخالق يعمل على امتصاص بعض هذه الطاقة ويبعث نوعاً من الراحة النفسية فى مقابل هذا الامتصاص . فيجد بعضُ الناس خلاصهم فى القيام بأى عمل بدنى كعزق الحديقة مثلاً . كما أن أى نوع من البناء أو الزرع أو التمريض أو التخطيط يكفل الإشباع المتسامى لذلك الدافع الجنسى الخالق . هذه إحدى الطرق التى تُعَالَجُ بها مثل هذه المشكلة الصعبة حقاً .

أما من الناحية الأخرى ، فإذا غدّينا الغريزة الجنسية وانغمسنا فيها بأفكارنا وخيالنا ، فإن الذاكرة تختزن كل هذا وتضيفه إلى قوة الدافع الأصلى .

والواقع أنه من الممكن جداً من الناحية العقلية أن نستثير هذه الدوافع فتهب بنفس القوة التى كانت عليها من قبل وتتغلب على ما لدى الإنسان من سيطرة عادية .

وإننا نقترح — كسياسة عملية — أن نرسم نظاماً ثابتاً للحياة يشتمل على مقدار محدد من التمرينات الجسمية ، كما أن العقل يجب أن يركز تفكيره فى الموضوع الذى يعالجه وألا يُسْمَحَ

له بأن يسرح أو « يشطح » إلى موضوعات غير مرغوب فيها .
 فعلينا أن نواجه الغرائز الفطرية كأنها مشاكل ونعالجها
 بطريقة طبيعية فلا نتجاهلها أو نلفظها بل نستغل قوتها في
 القيام بعمل مبتكر إنشائي وفي اتجاه نافع مفيد . وعلينا أن
 نستخدم القدرة على التصور ، أى أن تكون هناك صورة
 واضحة محددة في عين العقل ، نتخذ منها عاملا من عوامل
 كبح النفس والسيطرة عليها .

إن الحيوانات تسلك وفق غرائزها، ولكن الرجل والمرأة
 يجب أن يتعلما كيف ينظمان هذه الغرائز . إن الحيوانات
 غير مسئولة ولكن الرجال والنساء مسئولون، وهذه المسئولية، أى
 كبح النفس ، هى إحدى المسائل التى يجب أن يواجهها
 جميع مرضى الأعصاب . وكلما تمكنوا من كبح أنفسهم
 وأحسوا بالمسئولية الشخصية، أخذت متاعبهم الناتجة من فقدانهم
 هذه المسئولية فى الزوال .

وعلى هذا ، ما دام الكبت الجنسى يؤدي بنا إلى مشكلة،
 فعلينا أن نمارس أى فن يتيح لنا إفصاحاً خالفاً بمزاولة عمل
 أو ممارسة هواية ، على أن نتبع هذا بالإيحاء العقلى والتصور
 العقلى لتضمن الهدوء والتعقل والسيطرة الموجهة على جميع انفعالاتنا.

ولئن كان « الكبت الجنسي » مجرد عامل واحد من العوامل التي تستبد بسلوكنا في فترات معينة ، إلا أنه ليس أهم هذه العوامل . فهناك عوامل أخرى هي « الأفكار الثابتة » أو « الوسوس » . . . وهذا ما سنعالجه في الفصل التالي .

الفصل الخامس

الوساوس !

إن الغالبية الكبرى من الناس العصبيين ممن عرضنا لهم في الفصول السابقة ، أولئك الذين يعتقدون أن جميع مشاكلهم تُعزى إلى أمراض جسمية كأمراض المعدة والكبد وغيره من سائر أعضاء الجسم ، هؤلاء الناس لا يمثلون وحدهم جميع الحالات العصبية بأى حال من الأحوال . فإن هناك طائفة كبيرة من ضحايا الأعصاب ممن يعتقدون اعتقاداً جازماً بسلامة أعضائهم الجسمية ، ويؤمنون أن مصدر تعبهم يجثم في عقولهم ، وأن تعبهم هذا لا يقل خطراً بل ربما كان أصعب علاجاً . أمثال هؤلاء الناس تلوح عليهم علائم الصحة اللهم إلا تلك النظرة القلقة المبهمة التى تعلو وجوههم . وفوق هذا فإننا نراهم على أحسن حال عندما تعاودهم نوبات المرض ، على خلاف الآخرين الذين يبدون فى حالةٍ من الضيق والقلق وإن تفاوتت درجة هذا الضيق وهذا القلق من شخص إلى شخص ومن لحظة إلى لحظة ، فقد ينعمون بيوم جميل هادئ

بعد فترة قاسية من الكآبة والوجوم ولكنهم سرعان ما يرتدون إلى حالتهم الأولى ، يرددون سابق شكواهم .

أمثال هؤلاء الناس الذين نحن بصددهم الآن هم من الناحية الأخرى على خير ما يرام حتى تحل بهم تلك المصيبة التي تسلبهم هناءهم وهدوءهم ، ويظلون على هذه الحالة النفسية التعسة حتى تنقشع عنهم تلك الغمة فيعودون سيرتهم الأولى . وهم يشبهون تلك الغمة التي تنتابهم بسحابة كثيفة تغشى حياتهم لا يستطيعون أن يتبينوا من خلالها وميضاً أو شعاعاً . فقد ران اليأس والقنوط على قلوبهم حتى فقدوا كل أمل لهم في الحياة ، يقطعون أيامهم التعسة وقد استولى عليهم شعور من الذعر والفشل والتفاهة حتى اعتقدوا في قرارة نفوسهم أن أمورهم لن تستقيم أبداً وأن جميع مشروعاتهم مصيرها الفشل الذريع ، وأنه ما من أحد يعنى بهم أو يقيم لهم وزناً .

ما فائدة صحة الجسم وسلامته متى كان على هذه الدرجة من اليأس والقنوط ؟

هؤلاء المنكوبون من ضحايا الأعصاب تنتابهم نوبات من الكآبة واليأس لغير ما سبب معروف ، وفي فترات غير محددة ، فتحل النوبة بالمريض وتبقى مدتها المعينة ثم تزايله تاركة إياه

بنفس الحالة التي كان عليها ، وقد شفى منها تماماً وكأن لم يحدث شيء .

ولكن طالما كان ذلك المريض واقعاً ضحية لتلك النوبة فإننا نلقاه يقاسى من تلك الآراء المسيطرة أو الوسوس . وقد تكون تلك الوسوس فكرة أو عملاً أو خوفاً قد أقحم نفسه في شعور المريض بصورة يشعر إزاءها بعجزه المطلق عن مقاومته . فهذه الآراء هي شيء غير متكامل في ذاته ، ينظر إليها المريض على أنها بعيدة كل البعد عن ظل الحقيقة والواقع وفي بعض الأحيان، نرى تلك الفكرة الملحمة المسيطرة عليه أو الخوف لا يغيب أبداً عن خاطر المريض ، بل يستحوذ عليه ويؤثر فيه طوال أيام حياته .
ولذلك مجمل حالة من هذا النوع .

كان بطل هذه القصة يقوم بإدارة إحدى شركات البيع الناجحة . وكان معروفاً بأنه من أذكى رجال الأعمال في المدينة وأكفأهم ، وكان يؤخذ برأيه دائماً ، لا في شركته فحسب بل في الشركات الأخرى المتصلة به . فكان مديراً لأحد البنوك ولم يخطر ببال أحد ممن عمل معهم مدة عشرين عاماً أن هذا الرجل مريض . ولكنه كان - كما يقول هو عن نفسه - يقاسى من ألم نفسه

منذ طفولته .

قال : « لم أستطع أن أتخلص من ذلك الإحساس الغامر وهو أن جميع الأشياء ليست حقيقية لدرجة أنى كنت أشعر أنى موجود هنا كما أنى موجود فى عالم آخر غير هذا العالم ، ولم أستطع أن أطرد ذلك الشعور الغريب من رأسى ، حتى أصبحت حياتى مليئة بالخاوف ، فأتوقع الشر فى كل لحظة . بل كنت اكتب وأخاف من آلاف الاحتمالات التى لم تحدث أبداً . فإذا أويت لفراشى ليلاً لم أكن أنام قبل أن أستعيد فى ذهنى كثيراً من الأشياء التى حدثت فى أثناء اليوم أو أخشى حدوثها نتيجةً لتصرفات أتيتها فى ذلك اليوم ، وتكون النتيجة أن هذه الأشياء تسبب لى قلقاً وضيقاً ، فأستيقظ وأنا على هذه الحالة من القلق والذعر .

« كانت كل ليلة مفعمة بأحلامها المزعجة البغيضة التى كنت أشعر فيها بأنواع من الذعر والفرع قد طوتنى وألقت بى فى وسط تلك المخاوف التى لا يمكن أن أصفها والتى خيّل لى أنى كنت السبب فى حدوثها .

« كما كان يراودنى من وقت إلى آخر خاطر مفزع هو أنى سأموت . لى أدرك تماماً أن هذا كان حماقة منى وجهلاً

ما دامت كل الدلائل تشير إلى أنى فى أحسن حالات الصحة ،
وليس هناك أى احتمال للموت . غير أنى كنت ارتعد خوفاً
بمجرد أن أفكر فى احتمال الموت من أى شىء تافه ، كما كنت
أعتقد أن هناك شيئاً ما فى طعامى يسبب لى عسر الهضم
الشديد ، بل كنت أعجب وأنا أغسل وجهى إذا ما تسربت
بعض قطرات الماء إلى أذنى أن تسبب لى التهاباً ، كذلك كنت
أفكر فى احتمال موتى وأنا فى طريقى إلى عملى كأن ينهار على
البناء كله أو أن زلزالاً أو برقاً خاطفاً أو أى ضربة أخرى من
ضربات القدر قد تضع حداً لهذه الأشياء كلها .

« وكثيراً ما كنت اتفرس فى وجوه الرجال ممن يعملون فى
مكتبى وأقول فى نفسى « ربما يطلق على أحد هؤلاء الرجال
الرصاص عَرَضاً ، إني أعرف أن مثل هذه الأشياء مستحيلة
الحدوث أو على الأقل بعيدة الاحتمال ، ولكن مثل هذه
المخاوف كانت تهجم على خاطرى حتى لتكاد تكظم أنفاسى .
» ثم كنت أسائل نفسى عما إذا كنت قد تسببت فى
موت أحد فى يوم من الأيام ، بل كنت أرجع بسيارتى إلى
ما يقرب من عشرة أميال لأرى إذا كانت سيارتى قد أصابت
تلك السيارة التى مررت بها بعطب أو أحدثت بها بعض الخدوش

ثم أنى كنت أمضى الساعات الطوال وأنا أحاول التأكد من أنى لم أرتكب خطأ قد يسبب أذى لغيرى ، وكنت أدرك وأنا أقوم بهذا أنه ليس هناك احتمال لحدوث هذا ، وأدرك أيضاً أنى أعذب نفسى بهذه الطريقة وأعاقبها أشد عقاب .

« كما كنت أراجع الصفحات الطوال التى بعث بها إلى وكلاء الشركة لأتحقق من سلامة حكمى الذى أصدرته على هؤلاء الوكلاء . كذلك كنت أضيع جزءاً كبيراً من وقى وأنا أفكر فى شىء يجب أن أبت فيه فى الحال . كما كنت أقوم فى كل ليلة بعمل كافة الاستعدادات فى حالة الموت المفاجئ الذى كنت أعرف أنه لن يحدث .

« ولم يخطر ببال أحد من موظفى الشركة لماذا لم أتزوج ، وإن كانوا كثيراً ما يمزحون معى بشأن هذا الموضوع . غير أن معظم الناس كانوا يعتقدون أن انشغالى بعملى واهتمامى به لم يترك لى شيئاً من العواطف اللطيفة ومشاعر الحب الرقيقة . والواقع أنى فكرت آلاف المرات فى الزواج . بل إنى أحببت عشرات الفتيات ولكنى لم أعمدُ فى جميع هذه الحالات مرحلة التمهيد والتعارف ، وإن كنت أعتقد فى قرارة نفسى أنى إذا ما حاولت أن أتحدث إلى امرأة أو أن أثير اهتمامها فإنى لا أشك فى أن

أمنى بالفشل الذريع . ويستولى علىّ شعور المذلة والامتهان لدرجة أنى أكاد أموت بسببه . ولكن ما أكاد أركّز تفكيرى فى شئون عملى وأكرس نفسى كلها له حتى أشعر بالراحة نسبياً . حقاً إنى لا أسمى هذه الراحة هدوء النفس ، غير أنها راحة على أية حال إذا ما قورنت بالحالة السابقة .

« إنى أذكر نفسى دائماً بضرورة إخفاء تلك الحقيقة ، وهى أنى أفاسى بمثل هذه الشدة والمرارة . وقد أخلفت كثيراً من المواثيق الاجتماعية بدون سبب ، وتركت الناس يعتقدون أنى غير مكترث . كما سخرت من قلق الناس العصبيين ، ولم يفتن أى إنسان إلى أنى فى حرب دائمة للاحتفاظ بذلك الطلاء الذى يخفى تحته تلك الحشرة المعذبة الذليلة ! »

أمثال هؤلاء الناس من الصعب معاونتهم ، فهم لا يتقبلون ذلك النوع من العلاج المنتظم الذى نعطيه لغيرهم من ضحايا الأعصاب الذين يشكون علة جسمية .

إنهم يحتاجون إلى عناية أكبر من مجرد علاج ، لأنهم إذا ما جاءتهم نوبة الكآبة والوجوم أصبحوا فى خطرٍ من أن يتتحرروا . لذلك كان من الضرورى أن يكون هؤلاء الناس فى مكان لا يُخشى فيه على حياتهم حتى تزول عنهم تلك النوبة .

ومن حسن الحظ أن نجد هؤلاء الناس مستعدين دائماً للنقاش والافتناع .

إن العلاج الوحيد ذا الأثر المباشر يجب أن يأتي عن طريق الطبيب الذى يستطيع أن يقوم بفحص دقيق لعقل المريض . فإنه قد يصل إلى سبب دقيق لذلك الخوف أو تلك الفكرة الملحة المسيطرة . وفى مثل هذه الحالة قد يساعد المريض على التحرر من ذلك الخوف أو تلك الفكرة ، غير أنه ليس من الحكمة دائماً أن نحاول فحص هؤلاء المرضى فحصاً كاملاً ، إذ يكفي أن نثير فيهم ما يشغل تفكيرهم ، وربما كان الانصراف إلى عملهم خير سبيل لتحقيق هذه الغاية ؛ كما هو شأن تلك الحالة التى عرضنا لها سابقاً .

ولكن قد يوجد فى جميع الناس العصبيين بعض الأمراض الجسمية البسيطة التى تعمل على اختلال الصحة . وعلى هذا يجب ألا نسقط من حسابنا الحالة الجسمية وإن لم تكن العامل الأول فى هذا المرض .

إن الخطوة الأولى فى طريق شفاء الرجل العصبي من مرضه هى أن نبعث فيه الثقة والتشجيع ، وفى أثناء هذا يمكن أن ينال بعض العون من الطبيب الذى يستطيع أن يصل به إلى نهضة العرب

الشفاء التام من بعض الأمراض الجسمية البسيطة .
لذلك وجب علينا ألا نتغاضى عن أى ألم يشكو منه
المريض أو أن نعالجه فى شىء من الاستخفاف وعدم المبالاة .
ولكن علينا أن نستقصى أثره ونرسم له علاجاً مناسباً .

فمشكلة الأرق مثلاً - وهى من المشاكل الشائعة بين مرضى
الأعصاب - يجب أن تُعالج بمثل هذه الروح حتى أنه قد نلجأ
أحياناً إلى استخدام التنويم ليعين المريض على النوم أو إلى
قبول الإيحاءات العلاجية التى يكون لها أثر كبير فى شفاء
المريض .

فلا العقاقير ولا الكلام بل ولا التنويم يُنْظَرُ إليها كوسائل
غير مشروعة أو مبررة إذا ما استُخدِمت فى علاج الأعصاب
التى تكون حالتها أشد وأصعب من مجرد مرض جسمى .
إن الطبيب العاقل يجب ألا يهمل أية وسيلة حتى ولو كانت
تلك الوسيلة الشفاء بالروحانيات أو نوعاً من الدجل والشعوذة
مما يثق فيه المريض ثقة عمياء ، بل إن الطبيب نفسه قد يجد
من الأسباب ما يجعله يشجع المريض على سلوك هذا الطريق
حتى يتخلص من متاعبه .

أجل هناك بعض أنواع العلاج مما هو أسوأ من المرض

ذاته ، لذلك وجب على الطبيب أن يكون حذراً قبل أن يشجع المريض على أن يضع نفسه في قبضة أحد أولئك الدجالين الذين هم في الواقع باحثون عن المال في غير حذر أو مبالاة .

ووراء هذا كله نلمس أثر الذاكرة ، تلك الطاقة القوية التي تختزن كل فكرة يقبلها العقل ثم تنشر سلطانها على هذه الأفكار تدريجياً ، وبذلك تحدد الاتجاه العقلي . فتمت استقرت ودعمت مكانها في عقل الإنسان أُطْلِقَ عليها لفظ الآراء الثابتة المسيطرة أو الوسوس .

وفي بعض الحالات نجد أن الفكرة الخاطئة التي استقرت في عقل صاحبها قد تجرّفه إلى خارج حدود العقل . وإن أية فكرة تدخل العقل في شيءٍ من الحدة والتكرار يمكن أن تصبح فكرة ثابتة دون النظر إلى صدقها أو كذبها لأن الذاكرة اللاشعورية ليست عاقلة مدركة ولا هي ناقدة فاحصة . ولكنها مجرد آلة تمتص كل ما يُقَدَّمُ لها من آراء . إن النقد طاقة شعورية ، في حين أن وظيفة اللاشعور هي التسجيل ، وهو يقوم بهذا في اتقان تام لدرجة أن الآراء تنبعث فيه ويصبح من الصعب زحزحتها من مكانها .

وقد يحدث أحياناً أن تترك إحدى الصدمات الانفعالية أثراً عميقاً في العقل الذي يعمل من جانبه على أن يفرض نفسه على الانتباه حتى تكون له السيطرة عن طريق التكرار . وكلما حاول العقل ذلك زاد أثر الصدمة عمقاً ، وهنا يستهدف المريض لذلك الخطر بأن تزداد تلك الفكرة قوةً حتى تتحول إلى فكرة مَرَضِيَّة ثابتة . إن هذه قد تكون ، وقد لا تكون ، مشكلة مشروعة مبررة في أصلها ، ولكن أثر التفكير المتواصل يجعلها تلوح حقيقية في عين المريض وإن لم تكن في الأصل كذلك . وبهذه الطريقة ينشأ في المريض ما يُعرَفُ بالخوفُ الخيالي الذي يتسلط عليه ويغذيه هو بتفكيره الخاص .

وما دام العنصر الانفعالي يسيطر ، فلا يجدى معه أى نقاش عقلى أو جدال منطقي ، فإن الانفعال والعقل يسيران في مستويين مختلفين . وإن الشخص الذى سيطرت عليه فكرة ثابتة قلما تجدى معه المناقشة أو ترحزه عن اعتقاده مهما كانت تلك المناقشة معقولة ومقنعة .

إن المشكلة كلها تنحصر في أن هناك شعوراً خاطئاً يسيطر ، والشفاء منه يقوم على أساس تكوين شعور أفضل يسيطر على الشعور الأول .

وبهذه الطريقة أيضاً تنشأ تلك المشكلة التى تعرف بعقدة
النقص حيث يشعر الإنسان - كما رأينا فى الحالة السابقة التى
عرضنا لها - أنه سيمنى بالفشل الذريع لو أنه حاول أن
يتحدث إلى امرأة .

إن فكرة النقص أو العجز هذه متعددة الجوانب ، غير أن
جميع جوانبها وخيم العاقبة ، ذلك أن هناك فكرة مسيطرة
أو ثابتة لها سلطان العادة التى تتصرف من تلقاء نفسها . ولكن
المريض يعرف هذا جيداً ، وهو لا يبدى اهتماماً خاصاً
لسماع التفاصيل غير السارة التى يدركها فى الحال ، إنما يريد
أن يعرف موطن الشفاء . وهذا ما يتبينه بنفسه عندما يدرك الدور
الذى لعبته الذاكرة فى تسجيل الأفكار التى قبلها العقل ، لأن
الأفكار الثابتة إن هى إلا الأثر المتجمع من التفكير المتواصل .
ومن أجل تلك الأفكار التى نقبلها يجب أن نتحمل المسؤولية
ما دامت الطبيعة قد وهبتنا منذ ولادتنا ، القدرة على الاختيار .
إنه لمن المؤكد أنه إذا ما اعتقد الإنسان فى هذه الأفكار ،
أفكار النقص والعجز والتفاهة ، وقام بتحقيق نفسه بمقارنتها
بغيره ، فإنه لا يلبث أن يجد نفسه يعانى من عقدة
النقص الضارة ، ولكنه فى هذه الحالة لا يلومن إلا نفسه . .

فهو الذى سمح بالخوف الخيالى لأن يتسلط على عقله . ومن ذا الذى يستطيع أن يغير هذه الأفكار إلا هو نفسه ؟ ولماذا لا يبدأ بهذا فى الحال ؟

فلو أنه توقع شخصاً آخر يقوم له بهذا العمل ، فإنه يكون كمن يتوقع الشبع بالنظر إلى شخص يتناول غذاءه . والنتيجة هى أنه يجب أن نتحمل متاعبنا لأن هذه المتاعب هى نتيجة أخطائنا أو نقائصنا . فإذا ما تغلبنا على هذه المتاعب فإنها سرعان ما تذبل وتلاشى بعد أن تكون قد علمتنا درساً ، ولا يعود الإنسان يشكو منها .

إن العقل الباطن يرسل دوافعه إلى الشعور ولكننا يجب أن نقيم رقابةً يقظةً منتظمةً على هذه الدوافع ، فقد يحدث أحياناً أن يريد العقل الباطن اختبارنا ليرى إلى أى مدى يستطيع أن يقودنا . فإذا ما استسلمنا له وعملنا على تقوية هذه الدوافع الداخلية فإنه (أى العقل الباطن) يقوى ويشتد ويصر على الظهور ، وقد يسيطر علينا فى آخر الأمر عن طريق هذه الأفكار الملحة الثابتة . فقد نكون منتظرين قطاراً حتى إذا ما جاء هذا القطار تسرب إلى ذهننا خاطرٌ يقول : « الأفضل ألا نساfer فى هذا القطار ، فقد يقع له حادث » . وقد نكون

جالسين إلى المائدة ويُقدّم لنا طبق شهى ثم يهجم علينا هذا الخاطر « إن هذا الطبق قد يسبب لنا عسر الهضم » وهكذا . .
 فإذا تساهلنا في مثل هذه الأشياء فإن حياتنا سوف تستعبد لها تلك الأفكار الملحة المسيطرة التي تختفي وتتوارى إذا نحن قاومناها ، في حين أنها تقوى وتبسط نفوذها إذا نحن رضخنا لها وعملنا على إرضائها .

إن اللاشعور خادم قادر مفيد كما هو سيد مستبد بعيد المنال ، يستطيع أن يسيطر علينا سيطرة كاملة ، كما يمكنه أن يقدم أكبر العون والمساعدة . وإن أية فكرة ثابتة تستطيع أن تعمل في ناحية ما يمكنها أن تعمل في الناحية الأخرى . فلماذا لا يعمل الإنسان على أن يغرس في عقله فكرة الراحة وكبح النفس ؟ فإن هذه الفكرة سوف تصبح على مرّ الزمن طبيعة ثانية فيه شأنها في ذلك شأن الفكرة الضارة المسيطرة .

إن المشكلة التي يعاني منها معظم الناس هي أننا لا نسيطر على أنفسنا السيطرة الكافية . بل إننا نقنع بما هو أقل من القليل .
 إننا نملك جميع الأفكار عن هذا العالم ، ولنا حرية الاختيار ، كما نملك قوة الذاكرة وأثرها المتعكس على حياتنا . ولكن الشيء العجيب حقاً هو أن الكثيرين منا يختارون أفكار المذلة

والشعور بالنقص والعجز والخاوف الوهمية ، ويعتقدون أنهم قد أجبروا على أن يحيا حياة الخيبة والفشل لا لسبب إلا أنه ليس لديهم العزم على الشفاء من عللهم بنفس آلة الفكر التي أوجدتها .

وعلى هذا يجب أن نضع حداً لهذه المخاوف وأفكار الفشل والعجز والخيبة وغيرها من الأفكار السلبية ونستنجد بحلول اللاشعور العجيبة ليقدم لنا عوناً حقيقياً ، عوناً يمهّد الطريق للسعادة ، ويجعلنا نشعر بوجودنا ، عوناً يملأ نفوسنا أملاً في المستقبل فنرى الأشياء براقعة لامعة مبهجة .

الفصل السادس الإيحاء الذاتى

ليست الحالات التى ذكرناها سوى نماذج للإرهاق العصبي . . . غير أن هناك حالات أخرى لا تدرج تحت ما ذكرنا من نماذج . فمن بين الذين يقاسون من أعصابهم عدد كبير لا يصح وضعه بين تلك الفئات التى نحن بصددتها الآن ، لأنهم ليسوا ضحايا أى اضطراب عصبي فى الواقع . أمثال هؤلاء الناس نجد حالتهم أقل خطراً ، كما أن مشكلتهم ليس من الضرورى أن تكون مرتبطة بأى سبب حقيقى مدفون فى العقل الباطن .

أولئك الناس لا تراهم عصبيين فى مجرى حياتهم العادية ولكن جهازهم العصبي يكون من القلق وعدم الثبات لدرجة أنه لا يقوى على تحمل أى ضغط خارجى آخر .

هؤلاء الناس الذين يخشون الأضواء تُسلطُ عليهم إذا ما دعت الظروف لأن يقوموا بأى عمل يُظهرهم أمام الناس فتراهم يكادون يموتون خوفاً إذا ما اضطروا فى ظرف مفاجئ

لإلقاء محاضرة حتى ولو أمام نفر من الضيوف .

وقد يكون هؤلاء الناس ممن يجيدون العزف على « البيانو » أو أى آلة موسيقية أخرى ، غير أنهم لا يستطيعون العزف طالما كانوا فى حضرة شخص آخر . أولئك الناس يعانون كثيراً من أعصابهم التى تخونهم فى فترات حرجة وإن لم تظهر عليهم علامات العصبية فى الأحوال العادية الأخرى ، إلا أن الإحساس بهذا الضعف الذى ينتابهم فى إحدى الأزمات يؤثر على عقولهم تأثيراً شديداً ، وسرعان ما يدورون فى حلقة مفرغة لأن تفكير الإنسان فى ضعفه يزيد فى هذا الضعف ، كما أن إدراكه لهذا الضعف يدفعه إلى التفكير فيه من جديد .

هذا هو نوع الشخص العصبى الذى يمكن أن يُعالج بواسطة الإيحاء الذاتى . فهو ليس فى حاجة إلى نصائح الطبيب المتكررة التى هى كبيرة الفائدة بل ضرورية جداً فى حالة الأفراد العصبيين الذين أشرنا إليهم من قبل . ولكن الشخص الذى يصبح عصبياً فقط فى حالة معينة أو أزمة خاصة يمكن أن نرشده فى الحال إلى الطريق الذى يشفى به نفسه . إن مشكلته كلها تتوقف على دعم ثقته فى نفسه ، وفى إدراكه لقدراته الطبيعية الخاصة . وبهذه الطريقة يتعلم كيف يسيطر على

أعصابه ، وبالتالي يتعلم ألا يشكو من أعصابه .
 إن أصحاب الطباع الفنية هم أشد الناس عرضةً لهذه الحالة
 حتى أننا أصبحنا ننظر إلى حالتهم هذه كأنها أمر طبيعي .
 فيكون الممثل عصبياً في الليلة الأولى من تمثيله ، كما يصاب
 المغنى بهذه الحالة من العصبية وهو يخطو على خشبة المسرح .
 غير أن هؤلاء الناس لا يحق لهم أن يشعروا بهذا الشعور
 في الظروف التي لا تُعتَبَرُ جديدة تماماً عليهم .

إن ممارسة الإيحاء الذاتي كفيل بانقاذ هؤلاء الفنانين من
 كثير من « اللحظات المميتة » . فإن أقصى ما يجول في خاطر
 أى إنسان من هؤلاء هو وقوفه على المسرح وقد اكتظ بجمهور
 المتفرجين ، ثم يستولى عليه شعور مفاجئ أنه قد نسى
 ما يقوله ، أو أن صوته قد خانه .

هاتان الحالتان هما في العادة نتيجة "مباشرة" لعجز الإنسان
 عن السيطرة على أعصابه .

كما أن هناك بعض الناس المحظوظين ممن لا يدرون شيئاً
 عن الأعصاب . على أن هؤلاء الناس ليسوا دائماً أفضل الفنانين
 إذ أن الأعصاب ليست إحدى المؤهلات الضرورية للممثل
 العظيم ، فلو وجدَ في الإنسان نقصٌ أو عجزٌ في السيطرة على

أعصابه ، فعلينا أن نرشده إلى الطريق ، لنوضح له : لماذا وأين يوجد هذا النقص .

ويجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد إنسان قد وهبته إرادته السلطان المطلق الكامل على أعصابه . بل إن مشكلة هذا الشخص قد نجمت من سماحه لضعفه الأصلي لأن ينمو ويزداد ، فترك الضعف والاستسلام يأخذان مكان التوجيه والتحكم .

ولكن يجب أن ينقلب الوضع فيقود الذاكرة تحت سلطان الإرادة .

كما أن هناك كثيراً من الطبائع التي تميل إلى سلوك الطريق الأسهل أو الأيسر مشقة ، وإطاعة الدافع بدلا من كبحه والوقوف ضده ، وإن ندموا بعد ذلك على سلوكهم هذا الطريق بدلا من ذلك الطريق الذي تجاهلوه .

إن الجهاز العصبي قد كَوَّن بدرجة أنه إذا ما أتى الإنسان عملاً مرة ، أصبح أيسر على هذا الإنسان أن يسلك نفس الطريق . فيأتي هذا العمل مرة أخرى ، وإنه لأيسر على الإنسان أن يسلك طريقاً مُعَبَّداً من أن يشق لنفسه طريقاً جديداً . فإذا سلك دافعٌ عصبيٌ طريقاً معيناً ، أصبح من السهل أن يسلك

الإنسان هذا الطريق إذا شعر بمثل هذا الدافع العصبي الأول . وهذا في الواقع هو جوهر تكوين العادات والوسيلة إلى تعلّم الأشياء في الغالب بطريقة لاشعورية .

لهذا كان من الأهمية بمكان أن نكون عادةً ضبط النفس حتى إنه إذا ما جاءت تلك الحالة الشاذة فإننا لا نكون تحت رحمة أعصابنا بل نحفظ بهدوئنا كالعادة ، ونقوم بواجبنا الذي ألقي علينا في غير اضطراب .

والطريقة لتنمية عادة كبح الأعصاب والسيطرة عليها تقوم على قوة الإيحاء . فقد رأينا كيف أن الإيحاء يؤثر في الجانب اللاشعوري من عقولنا ، وكيف أن هذه الإيحاءات التي غُرِسَتْ هناك لن تُنسى أبداً .

فالشخص الذي تعوزه السيطرة على أعصابه يتعلم كيف يوحى إلى نفسه . وهذه الإيحاءات من شأنها أن تخلق فيه الإرادة التي كانت تعوزه من قبل .

وهناك طريقان يمكن بهما للإيحاء أن يؤدي عمله ويبلغ تأثيره . الأول بواسطة الإيحاء القوي الحاد ، أو عندما تكون القابلية الطبيعية للإيحاء في أوجها ، كما هي الحال في التنويم

المغناطيسي .
نهضة العرب

والطريق الثاني—وهو الأكثر شيوعاً—هو ألا نأقن مثل هذا الإيحاء العنيف ، بل نقوم بتكراره في فترات متعددة . ومن شأن هذا التكرار الدائم لنفس الشيء أن يعمق أثره في العقل .
 إن هذه الطريقة وإن كانت أبطأ ، إلا أنها أضمن من الأخرى ، وفوق هذا فإنها تلائم علاج النفس بصفة خاصة .
 والعلاج بالإيحاء يستهدف انتزاع الذعر العصبي وغرس الثقة بالنفس مكانها ، فيعطى المريض إيحاء بسيطاً أو إيحاءين يقوم بكتابتهما ثم يحفظهما عن ظهر قلب ، ويقوم بتريدهما في صباح كل يوم وفي غضون النهار . كما أنهما يكونان آخر شيء يفكر فيه في الليل . وهو في كل هذا لا يردد هذه الإيحاءات مجرد ترديد ، بل ينظر إلى الورقة المكتوبة ويقرأ سطورها بكل ما أوتي من تركيز . والعبارات الآتية قد تكون مثلاً طيباً .

- « لدى ثقة كاملة في نفسي »
- « إني أكون في منتهى الهدوء عندما أخطب جمعاً من الناس » .

- « إن أعصابي في منتهى الهدوء والثبات وما من شيء يقلقني »
- إن إطار العقل الذي تصفه الكلمات يجب أن نتصوره في درجة من الوضوح كتلك التي يستطيع المريض أن يتصوره

عليها . وعلى هذا يكون تصويره طبيعياً . فالخاطر الذى يخطر فى العقل كفكرةٍ مثلاً يترك أثره — بالتكرار — فى اللاشعور . وبمضى الوقت يحصل الإنسان على الشيء المرغوب فيه وفق الإيحاء، وبعد أسبوعين تُغَيَّرُ تلك الإيحاءات المكتوبة . فإن كان هناك ضعف من نوع ما وَجَّهَ إليه الاهتمام الخاص . فإن كان المريض ممثلاً أو مغنياً ممن تصيبه نوبات الخوف من أضواء المسارح فيمكنه أن يقول مثل هذه العبارات :

- « إني أحب التمثيل أمام الجمهور وأتوق إليه . »
- « إني أشعر وأنا على خشبة المسرح أنى فى منتهى الهدوء كما أنى أعطى لنفسى حقها . »

● « إني قوى ولا يستطيع الخوف أن يتسرب إلى عقلى . »
ويراعى أن تكون الإيحاءات دائماً فى صورة إيجابية فلا تُعطى فى شكل نهى (لا تفعل هذه أو تلك) فإن مجرد ذكر الشيء المنهى عنه يُعَدُّ خطأً من شأنه أن يولّد إيحاء خاطئاً فى الحال .

إن هدفنا كله يرمى إلى أن نُدْخِلَ فى عقل المريض فكرةً إيجابيةً مسيطرةً شبيهةً بتلك الأفكار التى نريدها أن تسيطر على عقله كلما كان عقله عُرْضَةً لمثل هذه النوبات . ففكرة

الخوف أو أية فكرة أخرى—ما عدا الأفكار المشجعة طبعاً—
يجب أن تُستبعدَ تماماً من عقل المريض .

إن نجاح العلاج عن طريق الإيحاء الذاتى يتطلب تكراراً
وتركيزاً . وهذا التركيز هو فى ذاته تمرين مفيد للعقل والإرادة ،
فهو يلوح سهلاً ولكنه ليس من السهولة بالدرجة التى يلوح
عليها . وهو يتطلب شجاعةً ومثابرةً حتى يؤدّى على الوجه
الأكمل . ولكنه عظيم الفائدة . فإن قوة الإرادة التى تنمو
وتشتد لا تحرر المريض من أعصابه فحسب بل تفيده كثيراً
فى صحته العامة . فإن تأثير العقل على الجسم لا حدّ له .
ولا شك أن الشخص الذى يتعلم كيف يتحكم فى صحته
السليمة ينجو من أمراض كثيرة .

الفصل السابع

نماذج حية !

والآن بعد أن وقفنا على طبيعة جهازنا العصبي ، وأنواع الدوافع التي تحدونا إلى السلوك على نحو معين ، وشتى المؤثرات التي تسيطر على سلوكنا ، تعالوا بنا نستعرض بعض النماذج الحية .

١

التهته

قد يكشف بعض العصبيين عن مشكلتهم في صورة أفعال أو خصائص جسمية معينة . ومن بين هؤلاء ، المهتهون . فالتهته تعرف الآن على وجه التحديد على أنها اضطراب عصبي ، وقد أدت معرفتها إلى أنواع من العلاج أفضل كثيراً من تلك التي كنا نعتمد عليها من قبل ، وحتى إلى وقت قريب كانت دراسة التهته وعلاجها منحصرة في الطرق الآلية المتعلقة بالكلام . وقد أدت هذه الدراسة إلى علاج ضعيف الأثر

اللهم إلا في بعض حالات الأطفال .

فالتهبة تختلف أحياناً عن التلغم على أساس أن التلغم هو تدخل خارجي في مخارج الكلمات والنطق بها ، في حين أن التهبة يُنظر إليها على أنها اضطراب في جهاز التنفس ، غير أنه يمكننا أن ننظر إلى التلغم والتهبة كأنهما شيء واحد ، فلا داعي للتفريق بينهما فالمسألة واحدة سواء أكانت الصعوبة تتعلق بالكلمات الساكنة أو الكلمات المتحركة . إذ أن الحقيقة الهامة الثابتة هي أن السبب الأصلي في هذا منشؤه الجزء اللاشعوري في العقل . فإن الكثيرين من المرضى الذين وُجد أن سبب التهبة عندهم راجع إلى تجارب الحرب المخيفة قد ساعدونا كثيراً على فهم هذا المرض فهماً صحيحاً . وأن معظم منتهى الحرب قد شفوا على أيدي الأطباء الذين استعادوا معهم تجاربهم في الحرب وفسروا لهم كيف أن هذه التهبة قد نشأت بسبب هذه الحادثة أو تلك .

وفي كثير من الحالات كان إفراغ الانفعال في أول جلسة يعقبه شفاء مباشر من التهبة .

وفي البعض الآخر من مرضى الحرب قامت التهبة على ما هو أبعد من الذاكرة المكبوتة ، لذلك كان من الضروري

القيام بعدة اكتشافات لمجاهل عقل المريض .

ويقتبس كلبن Culpin حالةً يظهر فيها أن تقلصات الفك الأسفل يكتنئ عنها بلبس القناع الواقي من الغازات السامة ، كما أن حركة انحناء الرأس كانت تكراراً لعدة محاولات لأن يزحف من تحت منطاد محطم بينما سعى طيار العدو إلى نفسه . ولمسك المريض بياقة سترته يدل على نفخه المهتز المضطرب في حالات الطوارئ . أما في حالات المدنيين فإن الشفاء من التهمة والتلعثم ليس في العادة سريعاً كالذي نصادفه في علاج مرضى الحرب . وتعليل هذا يسير .

فعادةً ما يكون المريض المدني (غير مريض الحرب) قد مضى عليه وقت طويل وهو يعاني من المرض قبل أن يطلب العلاج المناسب ، ومع هذا فإن عملية ارتياد عقل المريض وانتزاعنا من اللاشعور الخوف والذعر أو الصدمة التي نبتت هناك منذ الطفولة وعرضها أمام العقل الواعي (الشعور) للمريض... هذه العملية قد ساعدت المتلعثمين والمتهمين إلى حدٍ عجزت معه أنواع العلاج القديمة عن تحقيقه أو الوصول إليه .

وبجانب أمراض الكلام توجد أمراض متعددة كتقلصات الوجه أو الأعضاء التي نراها في كثير من الناس ، والتي هي في

الغالب الظاهرة العصبية التي يكشف عنها الإنسان . فقد نلاحظ تكشيرة في الوجه أو هزة من الرأس أو الكتف ، هذه التقلصات التي اعتاد عليها الشخص ترجع في العادة إلى الطفولة الأولى . فإذا لم تُصَحَّح أصبح من الصعب جداً على المريض البالغ أن يتخلص منها .

ومع هذا فإن الارتياح العقلي واستخدام الإيحاء يتيحان أفضل فرص الشفاء .

وفي كل هذه الحالات كما في غيرها من حالات الشكاوى من عدم تأدية وظائف الجسم وواجبها ، يجب ألا نهمل الجانب الجسمي في العلاج ، فإن المشاكل الوظيفية تكون دائماً أسوأ حالاً إذا كانت الحالة الجسمية سيئة . وعلى هذا كان جميع هؤلاء المرضى الذين أشرنا إليهم في الصفحات السابقة في أشد الحاجة إلى التشجيع ليغنوا بصحتهم وحالتهم الجسمية أشد عناية . كما يجب أن يُشَجَّعُوا أيضاً على ممارسة قدر معين من التمرين البدني يومياً في الهواء الطلق ، وأن يراعوا الاعتدال والبطء في الأكل . كما يجب ألا يتناولوا اللحوم أكثر من مرة في اليوم . كذلك ينبغي عليهم أن يأكلوا بعض الفاكهة ولو كمية ضئيلة في كل يوم ، والأفضل أن يكون هذا في الصباح . كما عليهم أن يعتادوا الاستحمام بالماء البارد كل صباح ، فإذا لم تقو نهضة العرب

الدورة الدموية عندهم على تحمل هذا ، فعليهم أن يدلوكوا أجسامهم بأسفنج به ماء بارد عقب الحمام الساخن . كما أن القيام ببعض الحركات الجسمية بضع دقائق أمام نافذة مفتوحة بعد الحمام يُعَدّ أفضل بداية ليوم صحى جميل .

٢

التبرير الكاذب

إن الشخص العصبى قد يضل طريقه وهو يبحث عن العظمة فيدخل عالم الخيال وهو عالم غير محدود الاحتمالات ، غير أنه قد يلوح فى مظهره الخارجى أنه يحيا حياة عادية جداً كتلك التى يحياها الشخص كعضو فى الأسرة أو فى المجتمع ، وقد يهتم بعمله ويسهم فى أنواع النشاط المختلفة . وهو — دون أن يدرى — يحيا فى عالمين ، عالم حياته الخاصة وعالم حياته العملية أو عالم وظيفته ، وكلا الجانبين لا يستهان به — فالحياة فى نظره مخيفة مليئة بالحقيقة .

أما هذه المزاعم العصبية أو التبريرات الكاذبة التى لا تتمشى مع العقل فإنها حاجات أو مطالب عصبية حوّلتها الأشخاص

إلى مزاعم دون تفكير . وهى لا تتمشى مع العقل لأنها تدعى لها حقاً - هو فى الواقع غير موجود . فالمرضى يشعر بأن له الحق فى كل شىء هام له أو هام فى تحقيق حاجاته العصبية الخاصة . فهو يرى أن العالم يجب أن يكون فى خدمته لا يقف فى سبيله شىء . مثال ذلك قصة تلك السيدة التى كانت تخشى فى قرارة نفسها أن تشك فى نفسها ، فكانت تشعر أنه من حقها أن تتحقق جميع حاجاتها إذ كانت تقول « إني لا أستطيع أن أفكر فى ذلك الرجل الذى أريد أن يحبني ولكنه لا يفعل . » هذه المزاعم قد اتخذت لنفسها فى بداية الأمر صوراً ورموزاً دينية مثل : « إن كل شىء أصلى من أجله ، يتحقق » فالزعم عند هذه السيدة قد اتخذ جانباً آخر . فما دامت ترى أنها لا تستطيع التفكير فى رغبة لا يمكن أن تتحقق ، نراها تكبح معظم رغباتها حتى لا تخاطر بمواجهة الفشل .

كذلك الناس الذين يرون أن حاجتهم هى حق دائم ، تراهم يشعرون أن من حقهم ألا ينتقدهم أحد أو يرتاب فى نواياهم أو يناقشهم فى أمورهم ، فى حين ترى الذين استسلموا لسيطرة الغير يشعرون أنه من حقهم أن يطيعوا هؤلاء الغير طاعة عمياء ، على عكس أولئك الذين يرون أن الحياة

مباراة ، وأن الناس يجب أن يستغلوا غيرهم دون أن يستغلهم أحد .

كما أن أولئك الذين يخشون مواجهة أنواع صراهم يشعرون أنه من حقهم أن يلفوا ويدوروا حول هذه المشاكل . أما ذلك الرجل الذى يندفع إلى إساءة الغير وهو فى الوقت نفسه محتاج إلى اعترافهم به ورأيهم فيه ، فإنه يشعر أنه من حقه ألاّ يَغْضَب أحد من شىء يأتيه .

أما الشخص المنزل عن الجماعة ، فإنه لا يطلب شيئاً بل يصر على زعم واحد، هو ألاّ يتدخل فى شئونه أحد أو يقلقه ، فهو يشعر أنه لا يحتاج إلى شىء من أحد، ولذلك فهو يشعر بحقه فى أن يُترك وشأنه ، ومعنى تركه وشأنه فى زعمه هو أن يُعْتَق من جميع أنواع النقد أو بذل أى جهد حتى ولو كان هذا فى مصلحته .

وكثيراً ما يحدث لأحدنا أن يفوته القطار أو لا يجد مكاناً فى الطائرة أو يعوقه عائق فى الطريق ، فيضيق صدره ويشتد حنقه لا سيما إذا كان منهوك القوى قد أخذ منه التعب كل مأخذ ، ولكن سرعان ما تهدأ تأثيرته ويأتيه الزعم العصبي هاتفاً فى نفسه « مَنْ يدري ! ربما يقع لهذا القطار حادث

أو يصيب تلك الطائرة مكروه !! » وكأن العناية الإلهية قد خصّته هو دون سائر الركاب ، ففوت عليه موعد قيام القطار أو الطائرة لكي ينجو !!

وقد نرى حالة عكس هذه الحالة تماماً ، كأن نرى شخصاً ينكر في نفسه احتمال حدوث أى شيء له ، ومن أجل ذلك نراه مستهتراً فيخرج في الجو البارد وهو محموم ولا يتخذ أى نوع من أنواع الوقاية من الأمراض ، بل نراه يسلك في الحياة زاعماً أنه لن يهرم أو يموت . فإذا ما أصابه مكروه كان هذا تجربة ساحقة قد تبعث في نفسه الذعر ، ومهما كانت هذه التجربة هينة أو محتملة فإنها كافية أن تحطم اعتقاده العظيم في ذاته ، وقد ينقلب نتيجة لهذا إلى الضد فيصبح كـلياً بالحياة ، شديد الاهتمام بها والحفاظة عليها .

هذه المزايم بعيدة عن الواقع من ناحيتين ، فالشخص الذى يدعى تحرره من المرض والشيخوخة بل والموت ، كذلك السيدة التى تشعر بحقها في أن تُقبَلَ جميع دعواتها فتغضب من أى شخص يرفض دعوتها مهما كانت أسباب هذا الرفض ؛ والسكير الذى يشعر أن من حقه على كل إنسان أن يساعده في محتته المالية في الحال وبروح طيبة بغض النظر عما إذا كانت

ظروف غيره تمكنه من مساعدته أو لا تمكنه .

أما الناحية الأخرى للمزاعم العصبية أو التبرير الكاذب فهي ما يجعلنا نحكم على صاحبها بأنه ساذج أو أنه شبيه " ببعض الأطفال المدللين ، وهذا يجعلنا نرجع كل هذه المزاعم إلى الطفولة لا سيما عند أولئك الذين لم يستطيعوا أن يشبوا عن طفولتهم .

أما تلك الحالة العصبية التي تجعل صاحبها يتركز ويدور حول ذاته فإنها أكثر تعقيداً وتختلف عن الأولى كل الاختلاف . فالإنسان يستهلك نفسه لأن حاجاته النفسية تمزقها صراعاته الحادة ، كما أنه مضطر إلى التمسك بحلوه الخاصة .

وهناك ظاهرتان طبيعيتان قد تلوحان متشابهتين ولكنهما مختلفتان . فإخبارك المريض العصبي أن مزاعمه طفولية أو أنها أشياء يأتيها الأطفال ليس له فائدة على الإطلاق . . بل إنه لا يتمشى مع العقل ولن يغيّر من أمره شيئاً ما لم يصحبه عمل آخر .

وكلما قل اتصال الشخص العصبي بالعالم الذي حوله ، قلّ إحساسه بالآخرين واهتمامه بمشاعرهم . ولقد أظهر أحد المرضى احتقاراً شديداً — ولكن في صورة متسامية — للحقيقة . فقال « أنى أشبه شيء بالشهاب المندفع في الفضاء » وهو يعنى

أن ما يحتاج إليه هو الحقيقة .

كما أن هناك خاصية أخرى للمزاعم الشخص العصبي وهي أن جميع الأشياء تأتي إليه دون أن يبذل جهداً ، ففى كان وحيداً ، لا يريد أن يستدعى شخصاً يؤانس به يعتقد أن شخصاً ما سيزوره فى تلك اللحظة .

وقد يزعم شخص أن من حقه أن يظفر بوظيفة أفضل أو بزيادة فى المرتب دون أن يكون قد قام بأى شىء يستحق من أجله هذه الزيادة أو تلك الوظيفة ، بل ربما كان ما يحتاج إليه غير واضح فى عقله .

وكثيراً ما نرى مريضاً يئس لنا حاجته الشديدة إلى السعادة . وقد يفضى إليه بعض أصدقائه أو أقاربه أن ما به من سخط يمنعه من الحصول على هذه السعادة . ومن أجل ذلك يذهب إلى المحلل النفسى فيسأل المحلل النفسى نفسه « لماذا لم تتحقق السعادة لهذا المريض وهو راغب فيها رغبة صادقة ، كما أنه يستمتع بالكثير مما يستمتع به الغير ويحلب لهم السعادة ، فلديه منزل مبهج لطيف وزوجة جميلة واستقرار مالى وطمأنينة ، لكنه لا يستمتع بكل هذا ، بل لا يجد لذة أو رغبة فيما يحيط به ... لماذا يحدث له هذا ؟ » .

فى هذه الصورة كثير من الحمل والانتواء الذاتى .
فأمامنا شخص قد كُبت يده ورجلاه حتى أصبح غير قادر
على معرفة قدراته الخاصة بسبب تلك المزاعم القوية الغالبة التى
استبدت به ، فجعلته يشعر أن من حقه أن يحصل على جميع
مطالبه دون أن يطلبها .

وكثيراً ما تقوم المزاعم على أسس أدبية ، فتسمع هذه
العبارات « لأنى والدك أو والدتك ، أو لأنى رجل ، أو رئيس »
ولكن هذه الأسباب لا تقدم تبريراً كافياً لهذه التصرفات .
أما أولئك الذين يعتقدون أن الحب يُحِل كل شئ وأنه
ينحول لصاحبه عمل كل شئ ، فإنهم يبالغون كثيراً فى فهم هذا
الحب وقيمته .

كما أن هناك بعض المزاعم التى تقوم على الضعف أو العجز
وعدم القدرة على تحمل المكاره أو مواجهة المواقف ، كأن يجبن
أحدهم عن الاستفسار بالتليفون فيجعل غيره يقوم بهذا ، كما
يحدث أن تشعر إحدى السيدات بالكآبة والضعف بدرجة
لا تستطيع معها أن تقوم بواجبها المنزلى ، فنجد أن سلوكها هذا
يزيد فى كآبتها وعجزها عما كانت عليه . وتكون النتيجة أن
آلامها تزداد حدةً وشدّةً .

ومن الأسس التي يلد لأصحاب المزايم أن يستندوا إليها،
العدالة . فكثيراً ما نسمع أناساً يقولون مبررين ما حدث لهم
وما صادفهم في حياتهم « لأنني أعتقد في الله » . أو « لأنني تعبت
كثيراً » ، أو « لأنني أفنيت زهرة حياتي في هذا العمل » ،
أو « لأنني مواطن صادق أمين . »

أو قد تسمع شخصاً آخر يقول في بساطة « إن المسألة
مسألة عدالة ... إن الأمور تسير كما أحب لأنني أستحق هذا » ؛ أو
« إن كل مكسب في هذا العالم ، نتيجة " مباشرة للطيبة والورع . »
ولكن الشواهد تدل على أن الجزاء ليس نتيجة حتمية للفضيلة .
كما أن إحساس المريض بالعدالة ، قد يمتد إلى إحساسه
بالعدالة مع الآخرين ، فإذا وقع على أحدهم ظلم أحس به
ذلك المريض في درجات متفاوتة .

غير أن الاعتقاد الشديد في العدالة من شأنه أن يجعل
الإنسان يعتقد أن الناس مسئولون عن جميع العقبات التي
تعرض سبيله في الحياة . وقد ينتج عن هذا الاعتقاد الشديد
في العدالة ستاراً للانتقام . وكلما زادت مزايم الانتقام زادت
درجة القصور الذاتي في الإنسان . ولا شك أن مثل هذه المزايم
تجعل حياة الناس أشد عناء وقلقاً .

وقد تستبد المزاعم بالشخص العصبي حتى يقع تحت سيطرة ما يسمى (يجب أن) فيزعم أنه يجب عليه أن يكون على أقصى درجات الأمانة والكرم والاحترام والعدالة والكرامة والشجاعة وإنكار الذات ، كما يجب أن يكون زوجاً مثالياً ومدرساً صالحاً ، كما يجب أن يحب والديه وزوجه ووطنه وإلا فيجب ألا يتصل بأى إنسان فى الحياة . كما يجب أن يستمتع بالحياة وفى الوقت ذاته يجب أن يكبح مشاعره ، كما يجب أن يعرف ويفهم ويتنبأ بكل شىء ، كما يجب أن يكون قادراً على حل جميع مشاكله ومشاكل الآخرين . كما يجب ألا يشعر بالتعب أو المرض ، ويجب أن يكون قادراً على الحصول على وظيفة ، كما يجب أن يعمل الشىء - الذى يعمل فى ساعتين أو أكثر فى ساعة واحدة !! !

وإذا ألقينا نظرةً على تلك الواجبات التى تملها عليه ذاته ، نجد أنها صعبة وجامدة معا . فإذا قلنا له إنه يتطلب من نفسه أكثر مما يجب أدركنا أنه يعرف هذا مقدماً . ولكنه يضيف إلى ذلك « من الأفضل للإنسان أن يتطلب من نفسه أكثر مما يجب » .

إن هذه الواجبات الكثيرة البعيدة التحقيق التى يفرضها

الإنسان على نفسه ناتجة من رجوع ذلك الإنسان إلى ذاته المثالية ومن اعتقاده في قدرته على عمل كل شيء .

إن ما يمليه الإنسان على نفسه من واجبات يشبه الحكم المطلق في سياسة الدولة ، كما أن فيه إهمالاً تاماً أو تغاضياً لظروف الشخص النفسية .

وهناك مطلب آخر قد يدفع صاحبه لأن يكون فاهماً لغيره مواسياً له ومعيناً ، قادراً على أن يذيب قلب المجرم كما فعل ذلك القس في قصة البؤساء لفكتور هيغو . وقد حدث أن تقمصت إحدى الفتيات شخصية القس وأرادت أن تكون مثله ، ولكن لم يكن لديها الاتجاهات والمواقف التي مكنت ذلك القس من أن يسلك كما سلك مع المجرم « جان فالجان » — فقد استطاعت أن تكون مُحسنة لأنها شعرت أنه يجب عليها أن تكون كذلك ، ولكنها لم تشعر بالإحسان قط ، بل إنها لم تشعر كثيراً بالحب أو العطف نحو أى إنسان ، بل كانت في خوف دائم من أن يستغلها شخص آخر ، إذ كانت تشك وترتاب فيمن حولها . فإذا ما غاب عن ناظرها شيء ، اعتقدت أن شخصاً ما قد سرق هذا الشيء .

إن هذه الحالة العصبية أو « هذا العصاب » جعلها تفكر

في نفسها وفي مصلحتها ، فكانت كل تصرفاتها تكسوها طبقة من التواضع المتكلف مما كانت مضطرة إلى اصطناعه .

أما تفسير هذه الواجبات العمياء فهو بحث الشخص عن العظمة والتسامي بذاته الحقيقية حتى تبلغ مكانة الذات المثالية . كما أن هذه الواجبات تمتد إلى الماضي البعيد حتى تصل إلى طفولة الإنسان الأولى ، فلو أنه ضيَّق الخناق على مشاعره فربما شعر أنه لا يحب والديه إلاّ لأنه يجب عليه أن يفعل هذا .

ولكن الرجوع إلى الطفولة الأولى ليس الميدان الوحيد الذي تعمل فيه الواجبات ، على أن نخدع الإنسان عن مسئولياته خداعاً كاذباً ، فقد نجد شخصاً يعتقد أنه كان من الواجب عليه أن يساعد صديقه عن طريق نقده الصريح ، وقد نجد شخصاً آخر يقول إنه كان واجباً عليه أن ينشئ أطفاله على ألاّ يكونوا عصبيين .

ومن الطبيعي أننا نأسف لفشلنا . هذا العمل أو ذاك ، ولكننا نستطيع أن ندرك لماذا فشلنا ، فنتعلم من هذا الفشل . وكلما عاش الإنسان في الخيال كان الاحتمال أكبر في تذليل تلك الصعاب .

مثال ذلك قصة الفتاتين اللتين شعرنا أنه يجب ألا تخافا

أبداً من أى شيء ، كانت إحداهما تخشى لصوص المنازل فأجبرت نفسها على أن تنام وحدها فى بيت مستقل . أما الأخرى فكانت تخشى العوم فى الماء ما لم يكن هذا الماء شفافاً لأنها كانت تخشى أن يعضها أحد كلاب البحر فأجبرت نفسها هى الأخرى على أن تعوم فى خليج مملوء بكلاب البحر .

أما أثر هذه الواجبات فى شخصية الإنسان وحياته فإنه يختلف إلى حدٍّ ما على حسب الطريقة التى يستجيب بها الإنسان لتلك الواجبات وكيفية تنفيذها .

ولكن هناك بضع آثار لا بد من ظهورها بانتظام وإن تفاوتت درجة ظهورها، فإن هذه الواجبات عادةً ما تولّد شعوراً من الضغط الذى تطرّد شدته بعدد المرات التى يحاول فيها الشخص أن يطبّق هذه الواجبات فى سلوكه أو ينفذها فى حياته . فقد يحس الإنسان بكراهيته لنفسه لأنه عاجز عن بلوغ ذلك المستوى الذى فرّضه على نفسه .

ولكن الأهم من هذا هو أن هذه الواجبات التى يفرضها الإنسان على نفسه تقتل فيه تلقائية المشاعر والرغبات والأفكار والمعتقدات ، أى القدرة على أن يشعر الإنسان بمشاعره الخاصة وأن يفصح عنها بحرية، إذ أن الإنسان أمام هذه الواجبات نهضة العرب

يفرض على نفسه ما يجب أن يشعر به ويميل إليه أو يعتقد فيه .
وهناك حاجز كبير بين ما يجب أن نشعر به وما نشعر
به فعلا . والنتيجة هي خلق المشاعر الإيهامية عند أولئك الذين
يوجهون ذواتهم المثالية في طريق الخير والحب ؛ فإذا عجز
الإنسان عن أن يسمو إلى مستوى هذه الواجبات التي يفرضها
على نفسه فإنه يضيق بنفسه بل يحتقرها .

٣

القلق النفسى

مهما تكن الظروف التي ينمو فيها الطفل ، فإنه يشب - إن
لم يكن متأخراً عقلياً - على اكتساب بضع مهارات بطريقة
أو بأخرى .

ولكن هناك بعض القدرات لا يقوى على اكتسابها
أو حتى تنميتها عن طريق التعلم ، فإنك لا تستطيع أن تجعل
من الشجرة الصغيرة شجرة ضخمة كشجرة الجميز مثلاً .
ولكن متى أتاحت لهذه الشجرة الصغيرة فرصة النمو المناسبة لها
فإن قدراتها الكامنة سوف تنمو وتفتح ، كذلك الإنسان إذا

ما أتاحت له الفرصة ، فإنه يميل إلى تنمية قدراته الإنسانية الكامنة فيه والخاصة به ، أى أنه ينمى القوى الحية الناشطة الخاصة به لتحقيق ذاته . فإن وضوح مشاعره وعمقها وأفكاره ورغباته وميوله والوقوف على قدراته الابتكارية الكامنة كقدرته على الإفصاح عن نفسه والكشف عن مشاعره التلقائية ، كذلك قوة إرادته ، كل هذه تمكنه فيما بعد من العثور على قِسميه وأهدافه فى الحياة ، وبعبارة أخرى ينمو نمواً متكاملًا فى الطريق الذى يوصله إلى تحقيق ذاته .

ومن أجل هذا ستحدث هنا عن الذات الحقيقية على أنها القوة المركزية الكامنة الموجودة فى جميع الكائنات الحية ، إلا أنها تتميز فى الشخص الواحد عن الآخر ؛ هذه الذات هى المصدر العميق للنمو .

إن كل فرد يستطيع أن ينمى قدراته التى وهبها ، غير أنه — شأنه فى ذلك شأن كل كائن حى — فى حاجة إلى الظروف المناسبة التى تمكنه من هذا النمو ، فهو فى حاجة إلى مَنْ يزوده باطمئنان النفس والحرية الداخلية ، التى من شأنها أن تعينه على تكوين مشاعره الخاصة والإفصاح عن أفكاره، فهو محتاج إلى حسن نية الآخرين ، لا لتساعده على سد حاجاته الكثيرة

ولكن لتقوده وتشجعه ليصبح فرداً ناضجاً واعدّاً ، كما يحتاج إلى الاحتكاك الصحى السليم برغبات الآخرين ونواياهم ، فإذا ما استطاع أن ينمو مع الآخرين فى جو من الحب والمودة فإنه سينمو فى الوقت ذاته فى الطريق الذى يوصله إلى تحقيق ذاته .

ولكن هناك عوامل متعددة تحول بين نمو الطفل وفق حاجاته الفردية وإمكانياته ، هذه الظروف المعوقة كثيرة جداً ولكننا إذا أردنا حصرها أو إجمالها فإننا نراها تتبلور فى تلك الحقيقة وهى أن الناس فى بيئة ما ، ينطوون فى أمراضهم العصبية الخاصة بالدرجة التى لا تمكّنهم من حب الطفل أو فهمه على الأقل كفرد له ذاتية وله كيان . بل إن سلوكهم نحوه أو موقفهم منه تحدده حاجاتهم واستجاباتهم العصبية .

هذه العوامل مجتمعة تؤثر تأثيراً مباشراً فى نمو الطفل ، وتكون النتيجة أن الطفل لا ينمى فى نفسه شعور انتمائه إلى الغير ولكنه ينمى بدلا منه شعوراً من عدم الاطمئنان الداخلى العميق والخوف الغامض الذى يمكن أن نطلق عليه القلق النفسى ، فيشعر بالعزلة والعجز فى عالم يشعر فى أعماق نفسه بالعداء له .

إن الضغط الناتج من هذا القلق الداخلى يمنع الطفل من

أن يكشف عن نفسه للآخرين أو يفصح عن مشاعره الحقيقية في صورة تلقائية ، كما يجبره على البحث عن طرق يتعامل بها معهم ، إذ يجب عليه - بطريقة لاشعورية - أن يتعامل معهم بطرق لا تزيد قلقه الأصلي بل تسكنه وتهدئه ، وتكون النتيجة أن يحاول التعلق بأقوى الأشخاص ممن يحيطون به أو قد يثور ويناضل أو قد يُبعد الآخرين من حياته الداخلية فيبتعد - عاطفياً - عنهم ، أى أنه يدنو من غيره من الناس وينأى عنهم أو يندفع إلى الثورة أو العزلة دون الإشارة إلى مشاعره الحقيقية وعدم ملائمة سلوكه لذلك الموقف المعين ، على أن درجة تمسكه بسلوكه هذا تتوقف على حدة أو شدة هذا القلق الأصلي الذى يعمل فى داخله .

وعلى هذا نجد الطفل تحت هذه الظروف مدفوعاً إلى تنمية اتجاهات متناقضة فى أساسها حيال الآخرين ، هذه الاتجاهات الثلاث التى تجعله يدنو منهم أو ينأى عنهم أو يقف ضدهم من شأنها أن تشكل فيه صراعاً هو الأساس الذى يقوم عليه صراعه ضد المجتمع . وبمضى الزمن يحاول التغلب على هذا الصراع بأن يجعل أحد هذه الاتجاهات الثلاث سائداً مسيطراً ، أى أن يجعل اتجاهه الغالب أو السائد

هو التوافق أو التناؤ أو التعادى .

هذه المحاولة الأولى لحل أنواع الصراع العصبى ليست سطحية الأثر ، بل على النقبض من هذا أئر قوى مسيطر على الطريقة التى يسلكها نموه العصبى فيما بعد ، كما أنها لا تقتصر على اتجاهاته نحو الآخرين . بل لابد لها من أن تجر وراءها تغييرات معينة فى الشخصية كلها . وعلى هذا الاتجاه الأساسى الذى يسلكه الطفل ، ينمى حاجاته المعينة التى تتفق معه ، وكذلك الميول الحسية والقيود التى هى بداية تكوين القيم الأخلاقية .

فالطفل الخاضع المسالم لا يخضع للآخرين أو يعتمد عليهم فحسب ، بل يحاول أيضاً ألا يكون أنانياً أو سيئاً . وبنفس الطريقة يحاول الطفل المهاجم المعادى أن يعطى للقدرة على الصراع وتحمل المكارة قيمة كبيرة .

ومع هذا ، فإن الأثر المتكامل للحل الأول هذا ليس من القوة والشمول كغيره من الحلول العصبية التى سنعالجها فيما بعد ، مثال ذلك قصة تلك الفتاة الصغيرة التى سيطرت عليها اتجاهات التوافق والمواءمة فظهرت هذه الاتجاهات فى صورة عبادة عمياء أو تقديس لبعض الشخصيات ذات النفوذ القوى ، كما ظهرت

فى ميلها القوى فى أن تنال رضا الغير وتبعث فيهم البهجة والسرور .
كما ظهرت فى الخوف من الإفصاح عن رغباتها الدفينة ، كما
ودت أن تعرضَ لُعَبَها فى الشارع العام لعل بعض الفتيات
الفقيات يجدنها - دون أن تفضى برغبتها هذه إلى أى إنسان .
وفى سن الحادية عشرة حاولت - كما يفعل غيرها من الأطفال -
أن تستسلم للصلاة فى صورة غامضة عميقة ، كما كان يحوم
فى عقلها شبح الخوف من بعض المدرسات ممن كانت تخشاهن
وتضيق بهن

وفى التاسعة عشرة من عمرها انضمت إلى بعض الفتيات
ممن كن يدبرن الحيلة للإيقاع بإحدى المدرسات ، كما أنها
تزعمت وهى لا تزال ، كالحمل الصغير ، بعض أعمال العصيان
والتمرد فى المدرسة ، ولما خاب أملها فى رجل الدين ، انصرفت
من العبادة الدينية العميقة إلى نوع من النقد اللاذع المرير .

إن أسباب تفكك التكامل الذى ظهر فى قصة تلك
الفتاة يرجع فى بعضه إلى عدم نضج الفرد النامى ، كما يرجع
فى بعضه الآخر إلى تلك الحقيقة وهى أن الحل الأول يستهدف
فى أساسه توحيد العلاقات مع الآخرين وتوافقها . وعلى هذا نجد

فراعاً أو في الواقع حاجة إلى تكامل أدق وأرسخ .

فإذا ما عاش الإنسان في مجتمع يتسابق ويتنافس وشعر في قرارة نفسه بالعزلة والعداء له ، فإنه يستطيع أن ينمى في نفسه الحاجة الماسة العاجلة لأن يسمو بنفسه فوق الآخرين .

على أن هناك ما هو أعمق من هذه العوامل ، ونعني به بداية الابتعاد عن النفس ، فنجد ذاته الحقيقية ليست عاجزة فقط عن أن تنمو نمواً مستفيضاً كاملاً ، بل إن هذه الذات أو النفس تلجأ إلى تنمية طرق مصطنعة تتعامل بها مع الآخرين . ومن شأن هذه الطرق أن تكبح مشاعره الحقيقية ورغباته وأفكاره إلى درجة تصبح فيها سلامته هي كل شيء ، كما تأتى مشاعره وأفكاره الدفينة في المرتبة الثانية ، بل الواقع أن هذه المشاعر والأفكار يخفت صوته ويختفي أثرها فيه ، فلا يهمه ما يشعر به طالما أنه آمن مطمئن ، بل إن هذه المشاعر والرغبات تكف عن أن تكون عوامل مسيطرة ، أى أنه لم يعد الموجه لها المسيطر عليها ، بل أضحي التابع لها المدفوع بها .

على أن هذا الانقسام الذي يحدث في نفسه لا يضعفه بوجه عام فقط ، بل يقوى فيه الانفصال عن نفسه ، ويدخل فيها الارتباك والحيرة حتى أنه لا يعرف أين يقف ، بل من هو !

إن الشخص الذى يتعد عن نفسه أو ينأى عنها يحتاج إلى بديلٍ لذاته الحقيقية ، ولكن من حماقة أن نقول هذا ، لأن هذا البديل لا يُوجدُ أبداً ، بل هو يحتاج إلى شىء يجعله يدرك ذاته ، فإن هذا يُشعره أن لذاته قيمة ومعنى .

فإذا لم تتغير ظروفه الداخلية بدرجةٍ يستطيع فيها أن يستغنى عن حاجاته هذه فلا يصبح أمامه إلا طريق واحد يكفل له تحقيق هذه الرغبات ، بل قد يحققها دفعة واحدة ، هذا الطريق هو الخيال . وعلى هذا يأخذ خياله فى العمل تدريجياً وبصورة لا شعورية ، فيخلق فى عقله صورة مثالية لنفسه ، وبهذه الطريقة يضى على نفسه قدرات غير محدودة ، متسامية ، فيتوهم نفسه بطلاً أو عبقرياً أو عاشقاً مثالياً أو قديساً أو إلهاً

إن التسامى بالنفس يحجر وراءه دائماً الشعور بتمجيدها الذى من شأنه أن يزود صاحبه بما هو شديد الحاجة إليه من الإحساس بأهميته والتسامى على الآخرين والسيطرة عليهم .

إن كل شخص يبنى صورته الشخصية المثالية من مواد تجاربه الخاصة وخیالاته الأولى وحاجاته المعينة ، كذلك من قدراته الموهوبة . وقد تصل الدرجة بالشخص إلى أن يتمم صورته المثالية المتكاملة التى لا تظل صورة فى خياله يحتفظ

بها في نفسه ، بل سرعان ما يصبح هو هذه الصورة — دون أن يشعر — أى أن الصورة المثالية تصبح شخصاً مثالياً أو ذاتاً (مثالية) وهذه الذات المثالية تصبح أكثر حقيقة في نظره من ذاته الأصلية لا لأنها تسهويه أكثر فحسب ، بل لأنها تحقق جميع حاجاته الدقيقة .

هذا الانتقال في مركز الجاذبية هو في الواقع عملية داخلية محضة ، فالتغير في أساسه ينشأ في شعور الإنسان بنفسه ؛ فهو عملية عجيبة وشخصية محضة . وهذا الانتقال يحدث في الإنسان لأن ذاته الحقيقية قد أصبحت غير واضحة بينما يأخذ هو في الابتعاد عنها من أجل الذات المثالية التي أخذت تمثل له حقيقته كما هو ؛ أو قدرته الكامنة كما هي ؛ ماذا يستطيع أن يكونه وما يجب أن يكون عليه . أى أن هذه الذات تصبح المرأة التي يتطلع فيها إلى دخيلة — نفسه والقياس الذى يقيس به نفسه .

إن التسامى بالنفس والبحث عن تمجيدها هو حل عصبي . والواقع أن الإنسان الذى يندفع في طريق البحث عن العظمة أو تمجيد نفسه يتجاهل ذاته تماماً من أجل مصالحه ورغباته . كما أن هناك مقياساً آخر للعظمة هو عدم التمييز ، فما دام ميل الإنسان الحقيقي في متابعة الشيء لا بهم ، بل المهم

هو أن يكون هو مركز الانتباه فيكون أذكاهم وأعظمهم ، سواء أكان الموقف يستلزم هذا أو لا يستلزم ، فالذى يهمه هو أن يخرج منتصراً في كل مناقشة بغض النظر عن الحقيقة والواقع .

إن البحث عن العظمة قد يصبح فكرة مسيطرة تلهم صاحبها ، وقد يكون لها صدى بعيد في صور الذعر والكآبة واليأس والغضب التي تغشى حياته كلها .

وإن الخوف من السقوط من شائق هو إفصاح في الغالب عن القلق والخوف من السقوط من مرتفعات عظمتها الموهوبة : وإذا فحصنا حلم أحد المرضى ممن كان يخاف المرتفعات وجدنا أن هذا الخوف قد استولى عليه في الوقت الذي استحوذ عليه الشك في قدرته على السيطرة ، تلك القدرة التي لا تقبل نزاعاً ، فرأى نفسه - في الحلم - واقفاً فوق قمة جبل ولكنه كان يخشى السقوط فظل متعلقاً بحافة القمة وهو يقول « إني لا أستطيع أن أصعد إلى أعلى من هذا . لذا كان كل ما يجب أن أعمله في حياتي هو أن أحتفظ بمكاني . »

غير أنه في حالته الشعورية كان يشير إلى مركزه الاجتماعي ولكن في إحساسٍ أعمق وكأنه يقول في نفسه « إني لا أستطيع

أن أرق أكثر من هذا » ، أى أنه لا يستطيع أن ينال أكثر مما يجول فى عقله من سلطة وعظمة .

أما الدور الذى يلعبه الخيال فى البحث عن العظمة ، فقد يظهر فى صورة صادقة ومباشرة فى أحلام اليقظة ، مثال ذلك قصة طالب الكلية الذى - رغم خوفه وانطوائه - تراه يعيش فى أحلام اليقظة كأنه أعظم رياضى أو عبقرى أو عاشق .

ولكن أحلام اليقظة ، وإن كانت مهمة وكاشفة لمشاعر الإنسان عندما تحدث ، إلا أنها ليست أخطر أعمال الخيال ، لأن الشخص يكون فى غالب الأحيان مدركاً لتلك الحقيقة ؛ وهى أنه يعيش فى أحلام اليقظة ، أى أنه يتخيل أشياء لم تحدث فعلاً أو أشياء ليس من المحتمل أن تحدث بالطريقة التى يمارسها فى خياله . وهو - على أى الحالات - ليس من الصعب عليه أن يدرك وجود أو عدم وجود الشخصية التى يتمثلها فى أحلام اليقظة . أما العمل الأكثر خطراً على الخيال فإنه يوجد فى التشويبات الدقيقة الشاملة للحقيقة التى لا يدرك فعلها أو أثرها تمام الإدراك .

كما أن الخيال يعمل على تغيير معتقدات الشخص العصبى . فهو فى حاجة إلى أن يعتقد أن غيره من الناس غريب أو

سيّء ، كما يغيّر مشاعره أيضاً ، فيشعر أو - إنه يحتاج إلى أن يشعر - أنه مُستهدفٌ دائماً ، كما أن خياله لديه القوة الكافية التي تدفع عنه الألم أو التعب . فهو يحتاج لأن تكون لديه مشاعر عميقة كالثقة والحب والعطف والصبر على المكاره إذ أنه يأخذ هذه المشاعر في صورتها المكبرة .

ولكن أين يقف خيال الشخص العصبي ؟ الواقع أنه أولاً وأخيراً لا يفقد إحساسه بالحقيقة تماماً ، فإذا كان هناك حد فاصل فيما يتعلق بمخاوف الخيال فإن هذا الحد غير ثابت .

والفرق بين دوافع العظمة ودوافع الإنسان الصحيحة قد لا يظهر واضحاً . فإنيهما يلوحان متشابهين في الظاهر ، وربما كان الاختلاف في الدرجة فقط ؛ حتى أن الشخص العصبي قد يلوح لنا أشد طموحاً وأكثر اهتماماً بالسلطة والمكانة الاجتماعية والنجاح في الحياة من الشخص السليم ، كما لو كانت مستوياته الأدبية أسمى من مستويات الناس العاديين أو أنه أكثر طموحاً وأكبر شأناً من أولئك العاديين من غمار الناس . فن هو ذا الذي يستطيع أن يرسم خطأً محددًا فاصلاً ويقول « هنا ينتهي الشخص السليم وابتدئ الشخص العصبي » .

إن التشابه بين الدوافع السليمة والدوافع العصبية موجود لأن هذه الدوافع لها اتصال أساسى بالقدرات الإنسانية الخاصة ، إذ أن الإنسان — عن طريق قدراته العقلية — يستطيع أن يصل إلى أبعد من نفسه ، كما يستطيع — بخلاف أنواع الحيوان الأخرى — أن يتخيل ويخطط ؛ وفي أحيان كثيرة يوسع مدى هذه القدرات تدريجياً .

إذن ليست هناك حدود ثابتة يقف عندها الإنسان فيما يفعله بحياته ، أى القدرات يستطيع أن ينمى ؟ أو ماذا يستطيع أن ينمى ؟

إذا أخذنا هذه الحقائق بعين الاعتبار وجدنا أن الإنسان ليست لديه صورة دقيقة عن حدوده ، وعلى هذا كان من السهل عليه أن يضع أهدافه إما إلى أعلى أو إلى أسفل . إن هذا الشك القائم أو القلق وعدم الثبت هو الأساس الذى يقوم عليه البحث عن العظمة .

فالبحث عن العظمة ينبع من الحاجة إلى أن تصبح الذات المثالية حقيقة واقعة . وبما أن الشخص العصبى كثيراً ما يتعلق بأوهامه عن نفسه ، فهو لا يستطيع أن يتبين الحدود ، وبذا يتماهى البحث عن العظمة إلى الشئ غير المحدد .

وما دام الهدف الأصلي هو الظفر بالعظمة ، فهو بذلك لا يجد ميلاً للتعلم أو العمل أو التقدم خطوة خطوة ، فهو لا يريد أن يصعد الجبل ، بل يريد أن يترجع فوق قمته ، وعلى هذا لا يفهم معنى التطور أو النمو وإن تحدث عنها كثيراً .

إن خلّقَ الذات المثالية يكون دائماً على حساب حقيقة الإنسان عن نفسه ، كما أن تحقيق هذه الذات يستلزم أنواعاً شتى من تشويه الحقيقة ، وهنا يلعب الخيال دور الخادم الأمين الذي يستعد دائماً لتحقيق هذا الهدف .

وتكون النتيجة أن يفقد الإنسان ميله للحقيقة واهتمامه بها ، ومن هنا تنشأ تلك المشكلة ، وهي صعوبة التمييز بين المشاعر الصادقة والمعتقدات والدوافع غير الصادقة أو المزاعم اللاشعورية المستقرة في نفسه وفي غيره .

غير أن الاختلاف بين الشخص السليم والشخص العصبي من هذه الناحية ، هو اختلاف في الدرجة فقط ؛ اختلاف بين الدافع الحقيقي والدافع المفروض ، هذا الاختلاف رغم أوجه الشبه الظاهرة بينهما هو اختلاف في النوع لا في الكم .

٤

السلوك المنحرف

عليك أن تلقى نظرةً على ذلك الصبي الذي لم يناهز العاشرة من عمره ، ومع ذلك فهو مشكلة لنفسه ولأسرته ولمدرسه وللمجتمع . وسوف يكون في يوم ما مشكلة للبوليس . فعليك أن تأخذ بيده وتقوده في الطريق السوى حتى يبدأ صفحة جديدة في سجل حياته .

والدان سيثان :

انحدر هذا الصبي من أسرة هي خليط عجيب من الرجال والنساء ، بعضهم كان حميد الصفات وبعضهم كان سيئ الخلق ضعيف الإرادة . ولم يكن لهذا الصبي حَوْلٌ أو قوة فيما صار إليه أمره . فهكذا وجد نفسه بين والدين سيئين . لذلك نراه منذ اللحظة الأولى يشق طريقه مكافحاً في سبيل الحصول على ما يريد ، فكان عليه أن يستخدم ذكاءه وسعة حيلته . وسرعان ما تعلم كيف يقف في وجه السلطة مهما كان نوعها ، ومهما كان مصدرها ، فنشأ وهو يضمّر الكراهية

لأنه لم ير ولم يسمع ولم يشعر فيما حوله إلا بالكراهية العميقة ، فكان يثور على جميع نظم الفصل والنادى وأثاث المدرسة . كما كان يثير حوله ضجة كبيرة تقرب إلى الشغب .

وجملة القول أنه لم يكن على خلق طيب في المدرسة ، مما جعل المدرسين ينفرون منه ويضيقون به .

كما كان يسكن في حي فقير من أحياء المدينة ، وكان يقيم في جحر لا يمكن أن يُطْلَقَ عليه لفظ بيت ، أما والداه فقد كانا أى شىء إلا أن يكونا والدين صالحين .

كان ذلك الصبي مُشْكِلًا يضم بين جوانحه جميع المشاكل الشخصية ، كذلك جميع المشاكل التى يموج بها عالمه الذى وجد نفسه مضطراً لأن يحيا فيه .

قد تُصَادَفُ مثل هذا الصبي في المدرسة أو في النادى أو في الملعب ، وعليك أن تفعل شيئاً لإصلاح أمره ، بل قد يكون لديك ثلاثة أو ثلاثمائة تعنى بأمرهم وتوجههم الوجهة السليمة .

عليك — أو على القادة — محترفين كانوا أو هواة — أن تحاول الكشف عن مشكلته وتقدّم له العلاج لينشأ مواطناً كريماً . ومن يدرى ، فإن هؤلاء الأطفال الذين نتشلهم اليوم

من مهاوى الفساد التي تردوا فيها ربما أصبحوا مواطنين صالحين ،
يلعبون دوراً هاماً في حياتنا الاجتماعية . ولربما جاءنا الأطفال
العاديون في صور خارقة كما يقول بلوتارك « قد ينتج خير الحيات
من صغار الخيل الجامحة » .

أنواع المشاكل :

وهناك ألوف من الأطفال يولدون - من سوء حظهم - على
جانب كبير من الضعف العقلي أو الجسمي أو العاطفي
أو الاجتماعي ، وهذه مشكلة شخصية قد تصل بذلك الطفل
الذي يصبح في حاجة ملحة إلى مَنْ يعينه على أن يشأ نشأة
كريمة مستقيمة ، إذ أن ضعفه هذا قد يجعله مستهدفاً للخطر
والضغط من جيرانه ومن البيئة التي يحيا فيها . فإذا لم يجد العون
الصادق الحقيقي منذ البداية ، فلا عجب بعد ذلك إذا رأيناه
يعجز عن أن يكون مواطناً قوياً مسئولاً .

البيئة السيئة :

وعادةً ما تبدأ البيئة بالمنزل ، وأقوى عوامل المنزل أثراً هو
الأم التي تلعب دوراً هاماً في حياته لا سيما في سنينه الأولى ،

ثم يأتي دور الأب بعد ذلك ، ثم دور الأخوة والأخوات ثم رفاقه وجيرانه وما يأتونه من أنواع النشاط والعمل ، كذلك الجو الثقافي والاجتماعي لتلك البيئة التي ينشأ فيها . كل هذا يترك أثراً قوياً في الطفل الناشئ . غير أن هناك بعض الأطفال ممن يولدون بمشاكلهم كالضعف الشخصي ومقر البيئة الثقافي ، فتكون هذه المشكلة عبئاً على الطفل ينوء بها كاهله ، هذه المشكلة تقف في طريقه عقبة كأداء ، فأنسى لطفل لم تتوفر لديه القوة والمعرفة أو الخبرة أن يتغلب على كل هذه الصعاب ؟ ! لأنه في الواقع في حاجة إلى مَنْ يشد أزره ويأخذ بيده .

نوع الوالدين :

فإذا وُلِدَ الطفلُ ضعيفاً وكان له والدان صالحان ، استطاع هذان الوالدان التغلب على الصعاب وعوضاه بعض هذا النقص ، ولا نغني بالوالد الصالح الوالد الغني فكم من والدين أثبتا صلاحيتهما على الرغم من أن دخلهما محدود ، وكم من آباء يعيشون في أفقر الأحياء ينشئون أبناءهم تنشئة سليمة ممتازة ، فيسلكون سلوكاً مرضياً في المدرسة كما ييزون غيرهم من أقرانهم . ذلك لأن هؤلاء الآباء يغرسون في أبنائهم المثل العليا والصفات

الحميدة ، فيشبون مفخرةً لأسرهم ولجتمعهم ووطنهم أيضاً .

الرجل الغنى لايغنى الرجل الصالح :

ومن الناحية الأخرى ، نجد آباء على جانب كبير من الثراء ، إلا أنهم أنانيون لا يكثرثون كثيراً لأبنائهم ؛ هؤلاء الأبناء كثيراً مايسيئون للمجتمع ما يُعرَفُ بالابن المشكل أو الشاذ ، وهذا يفسر لنا تلك الظاهرة ، وهي كثرة عدد الشواذ في الأسر الغنية لا الأسر الطيبة ، كما يفسر أيضاً ظاهرة أخرى وهي كثرة عدد المواطنين الصالحين الذين نشأوا في الأحياء الفقيرة .

القدوة السيئة :

وقد يولد أطفال عاديون أقوياء غير أنهم قد يُنكَبون بآباء سيئين ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء فيكون هؤلاء الآباء قدوةً سيئة لأبنائهم ، إذ قد يهملونهم أو يتجاهلون رغباتهم ويقدمون لهم كل يوم نوعاً خاطئاً من فلسفة الحياة ، فلا عَجَبَ إذا رأينا هؤلاء الأطفال يصادفون مشاكلَ عِدَّة في حياتهم . لذا يمكن أن يقال إن مفتاح الشذوذ في الأطفال لا يزال في يد الآباء . فإن هؤلاء الأطفال المنكوبين بآباء سيئين سيصبحون

مشكلةً لأنفسهم وللمجتمعهم . وفي هذه الحالة لا نلوم هؤلاء الأطفال إذا ما بدأوا حياة سيئة .

إن مثل هؤلاء الأبناء يصبحون مشكلة يستعصى علينا حلها .

الطفل ضحية وليس مذنباً :

إن الولد المشكل هو ضحية وليس مذنباً ، فهو محتاج إلى مساعدة غيره ، وقد تكون هذه المساعدة من جانب الإشراف اللطيف والتوجيه السليم والتهديب الكامل . فهو لا شك يحتاج إلى حب ورعاية شخص قريب منه يعنى به ويقف على مراحل نموه ، لأن كثيرين من الآباء قد فشلوا في القيام بهذا الدور لهم .

بقيت المشكلة الكبرى وهي أنى لنا تدير العدد الكافى من المشرفين الأكفاء الذين يستطيعون القيام بهذه المهمة قبل أن يستفحل الأمر ويعبرَ الصبي طريقه إلى مركز البوليس أو محكمة الأحداث ؟

علينا أن نتذكر دائماً أننا عونٌ هؤلاء الأطفال ولنا قضاة لهم ، علينا أن نرى هؤلاء الأطفال من ضعفهم ونعتمد على مصادر قوتهم حتى يتخطوا الحواجز والصعاب .

صبي مشاغب

واليكم حالة أخرى ، هي حالة صبي نطلق عليه نحن في لغتنا الدارجة اسم «صبي مشاغب» وقد عرض لها L.F. Shaffer في كتابه The Creative power of Mind قال :

اسمه جيمس ، أُرْسِلَ إلى إحدى العيادات السيكولوجية بسبب سوء سلوكه في المدرسة حتى أن ناظر المدرسة ضج من اعتداءاته المتواصلة على الأطفال الأصغر منه سناً ، كما شكّا من سرقاته في بعض الأحيان .

وظل جيمس على هذه الحالة الشاذة أكثر من عامين ، فلما بلغ منتصف الثالثة عشرة من عمره وُضِعَ تحت إرشاد ثلاث مدرسات تناوبن علاجه الواحدة بعد الأخرى ، ففشلت معه الأولى ، ولم تكن الثانية أوفر حظاً من سابقتها ، غير أن الثالثة استطاعت أن تجعله يقلع عن أساليب الشغب ويمتنع عن السرقة سالكةً معه بعض طرق القمع والكتب .

كان يأتي في الفصل ما يأتيه غيره من الشواذ ، كما كانت

تصدر عنه تصرفات شبيهة بتلك التي تصدر عادةً عن أصحاب الطباع الجاحمة المسيئة ، فإذا مشى ، دقّ أرض الفصل بقدمه بينما يسير زملاؤه في هدوء بين الصفوف ؛ كما كان يتلفت يمنة ويسرةً ويتحدث مع هذا وذاك إذا ما أدار المدرس ظهره ؛ كما كان يشغل نفسه بأنواع من الشجار مع زملائه لاسيما مَنْ كان أصغر منه سناً .

غير أن الشيء الوحيد الذي أثار مدرسيه وخيب أملهم فيه كما أثار اهتمام علماء النفس في الوقت ذاته هو طبيعة جيمس وميله القوي للخروج على القانون والعبث بنظام الفصل ، فقلما كان يلعب مع تلميذ أو تلاميذ في سنه ، بل كان في معظم الأحيان ينصرف إلى مَنْ كان أصغر منه سناً من التلاميذ ، يضرب هذا ويدفع ذلك دون سبب معلوم ، واجداً في ذلك لذةً لا تفوقها لذة ، وهو يطارد ضحيته البريئة حتى باب البيت .

أما السرقات التي كان يرتكبها ، فقد كانت سطواً على زملائه الصغار ، ينتزع منهم بعض الأشياء ويقوم بتوزيعها على غيرهم من التلاميذ ، كما كان يسطو على مخازن الفاكهة و « البامبش » ليُسْرِكَ غيرَه في الغنائم والأسلاب .

فلما جيء به إلى العيادة السيكولوجية ، لم يظهر في سلوكه نوعٌ من أنواع الشغب ، بل لاح صبيّاً شاحباً نحيلاً بالنسبة لعمره ، كما كان سلوكه مع غيره على جانب من المودة والتعاون .

أما الفحص الطبّي فلم يكشف عن نقص أو عيب يتطلب علاجاً ، فحالته العامة جيدة ، كذلك كان سمعه وبصره عاדיين ، كذلك لم تظهر عليه أية علامة لاضطراب الغدد .

أما في اختبار الذكاء ، فقد سجل جيمس عمراً عقلياً لصبي في ١٣ سنة و ٣ شهور . وكان مُعَامِل الذكاء ١٠٧ أى فوق السوى قليلاً ، في حين أن الاختبارات المدرسية سجلت نتائج خيراً من هذه ، أما عمره التعليمي فكان ١٥ سنة وشهر ومُعَامِلُ التعليم ١٢١ ، كما أظهر تفوقاً في جميع المواد لا سيما في القراءة والإملاء . أما في مادة الحساب فقد كان فوق العادي قليلاً .

أما أسرة جيمس هذا ، فكانت تعيش في ظروف مادية ميسرة ، فوالده يعمل بائعاً ، له دخل كافٍ ، يسافر في معظم الأيام ، وأثره في جيمس ضئيل .

أما والدته فقد كانت سيدة قوية البنية ضخمة الجسم ، ولِدَتْ في الزويج وهاجرت إلى أمريكا في طفولتها مع شقيقتها الكبرى ، أما جداه لوالده فكانا قد ماتا من زمن غير قصير ، في حين أن جديه لوالدته لم يذهبا قط إلى أمريكا .

وكان لجيمس شقيق أصغر منه عمره ١٠ سنوات و ١٠ أشهر اسمه تشارلس ، كان الرفيق الملازم لجيمس ، وكان يحاكيه في كثير من تصرفاته .

أما السجل الصحي لجيمس فقد بين أنه كان دائماً نحيلاً ضامر العود ، سيئ التغذية ، أصيب بالحصبة والجديري والسعال الديكي قبل أن يبلغ السادسة ، وكانت هذه الأمراض كلها شديدة الوطأة على جيمس ، كما كان السعال الديكي سبباً في تأخره ستة أشهر في دراسته . كذلك أجريت له عملية إزالة « اللوز » وهو في الثامنة .

أما أبرز الجوانب في تاريخ جيمس ، فهو سجل الحوادث التي ألمت به ، إذ كُسِرَ ذراعه الأيمن مرتين في السابعة والثامنة من عمره . كما صدم ساقه الأيسر وهو في منتصف العاشرة ، وقد حدث له كل هذا إبان لعبه الحشن مع الأطفال الآخرين .

وكان جيمس ينام بانتظام فى التاسعة مساء حتى منتصف الثامنة من صباح اليوم التالى ، وكانت مواعيد أكله عادية ، كما أنه اعتاد على أن يرتدى ملابسه بنفسه وهو فى الرابعة . ولا يعرف والده أو مدرسه شيئاً من عاداته الجنسية .

وفى معظم الأحوال كان يلعب منفرداً أو مع شقيقه الأصغر منه ، كما كان يفضل الألعاب المنزلية أو الورق على الألعاب الرياضية، ولكنه نال قسطاً وافراً من ألعاب الانزلاق والبحرى ، كما كان شغفه بالسيف شديداً ، غير أنه لم يكن يُسَمَحُ له بالذهاب إليها إلا مرة واحدة كل أسبوع ؛ ولكنه كان يتحدث عن كل فيلم يراه عدة أيام ، وكانت أحب الأفلام إليه أفلام المخاطرات حتى أنه كان يتمنى أن يصبح فيما بعد أحد أبطال رعاية البقر ، ولم تكن عنده مطامع أخرى .

أما ألهيته الأخرى فقد كانت القراءة ، إذ كان يقرأ كتابين أو ثلاثة فى الأسبوع ، تدور كلها حول حياة الأبطال .

وعندما سئل لماذا لا يلعب كرة القدم أو كرة السلة لم يُبَدِ سبباً معقولاً فى أول الأمر ، غير أنه تشجع أخيراً وقال إنه يعزو هذا إلى إصاباته السابقة .

كما أن والدته لم تكن لتشجعه على اللعب مع صبية آخرين خوفاً من أن يصاب من جديد ولعدم قدرته على الانسجام مع فريق اللاعبين .

إن مثل هذا السلوك يعزى - إلى حد كبير - إلى حالته الجسمية ، فإن تعدد إصاباته وكسر ذراعه مرتين وكسر ساقه مرة ، كل هذا بجانب ضعفه الجسمى ، جعل جيمس يتجنب مشاركة غيره في اللعب الخشن .

إن هذا الخوف وهذا التجنب للمخارج العادية للنشاط دفعه للبحث عن حاجته إلى بديلٍ يتيح له الإشباع لأنواع نشاطه ، فهو بدوافع السيطرة وكسب رأى المجتمع وجعلها دوافع تبحث عن إشباعها بمعاكسة غيره وضربهم والمباهاة بالسرقة وتوزيع ما يسرقه على غيره .

كذلك نجد تكييفاً لحالته عن طريق الإشباع الخيالى وذلك بقراءة القصص ومشاهدة الأفلام ، وما دامت هذه الوسائل تقلل عنده حدة التوتر ، فقد أصبحت عادات لاصقة به . كما أن حالة جيمس ترتبط بعوامل أخرى ، فإن حاجته لصداقة والده وحذب أمه الزائد وإسرافها فى المحافظة عليه من شأنه أن يجعل من الصعوبة بمكان ، أن تتكون فى

جيمس صفات الرجولة ، فيحصل على الانسجام العادى .
 كما أن سوء وضعه فى المدرسة بتركه مع أطفال أقل منه
 عقلياً حال دون أن يكون تحصيله العلمى فى المدرسة مخرجاً
 كافياً لحاجياته .

أما العلاج الذى اقترحه الخبراء فكان يرمى إلى إبعاد السبب
 الرئيسى لعدم انسجامه وإبعاد بعض العوامل التى تساعد على
 هذا . فشجّع جيمس على اللعب مع صبية فى سنّه كما وقفت
 والدته على حاجته إلى ذلك .

ولكى تُنمى فيه العادات الاجتماعية المرغوبة ، انضم إلى
 فريق الكشفة وجمعيات النشاط المدرسى ، كما أحيط رئيس
 الكشفة والمشرف على الألعاب علماً بمشاكله وشجعه على
 الانضمام إلى جماعات النشاط المختلفة . كما نصحاه أن يتعلم
 أصول الملاكمة لتدعم فيه ثقته فى قدرته الجسمية . كما أشادت
 المدرسة بتفوقه العلمى وبحاجته إلى مستويات علمية أعلى .

فانتقل نتيجةً لهذا إلى فصل أرقى فى الحال ، حيث وجد
 العمل فى هذا الفصل حافزاً له ، كذلك أتاح وجوده بين فريق
 جديد الفرصة لأن يغيّر من عاداته لوجوده مع تلاميذ لم يتوقعوا
 منه شراً .

إن هذه الإجراءات العلاجية تختلف كل الاختلاف عن الطريقة القديمة التي كانت تلجأ إلى العقاب .
 إن العلاج الذي يقدم دروساً في الملاكمة لصبي عاب للضرب والمشاكسة ، العلاج الذي يشجع التلميذ المشاغبي المتعب بدلاً من أن يثبط همته ويعمل على فشله . هذا العلاج له تأثير قوى لأنه يقوم على فهم حاجات الصبي الأساسية ومحاولاته السابقة الفاشلة لأن يكتيف نفسه مع الجماعات التي يعيش معها .

من ذلك نرى أن مشاكل سلوك جيمس من ضربه لزملائه وإثارة اهتمام الغير والسلوك الشاذ وأنواع السرقة ، كل هذه أمثلة للطرق الدفاعية التي تعمل على تلطيف حدة التوتر . فتي حصل صاحبها على إشباع ، وهو في صورة عنيفة أو سلوك هجوى ، فإنه لا يلبث أن يلجأ إلى هذه الطرق العنيفة كمخارج لما في نفسه من دوافع قوية .

من هذا نرى أن جميع الأشخاص لديهم عيوب متفاوتة . فالسلوك الدفاعي هو صفة "طبيعية" شائعة بين جميع الناس ، ولا يصبح السلوك الدفاعي مشكلة نفسية تحتاج إلى علاج إلا عندما يأخذ شكلاً فيه إسراف كبير . كما أن طرق التكتيف

والمواءمة هي عادات مكتسبة يلجأ إليها الناس لإشباع دوافعهم ؛
 إذ أن جميع الناس يمرون بتجربة الحرمان . وقلما نجد شخصاً
 أوفى من القدرات أو الصفات ما يمكنه من حل جميع مشاكله .
 لذلك كانت هذه الطرق الدفاعية أمراً طبيعياً وضرورياً في
 كل فرد .

والإنسان يقوم بعملية التكيف هذه كما يقوم بعملية الأكل
 والنوم ، إذ أن الأكل والنوم لا يخرجان عن كونهما ألواناً
 من التكيف .

على أن هذه الطرق الدفاعية لا يكتنفها الغموض أو تحيط
 بها الأسرار ، إذ ليست اضطرابات أو مظاهر اضطرابات عصبية ؛
 بل هي مجرد صور أو أشكال لردود أفعال يأتيها الأشخاص
 وهم في موقف يهيئ لهم الفرصة للتكيف .

وإن دراسة أنواع طرق التكيف إنما هي دراسة لسلوك
 الإنسان العادى ، كما هي دراسة للسلوك الشاذ . كما أن معرفة
 الطرق التى يسلكها الناس ليكيفوا أنفسهم ذات قيمة كبيرة
 لفهم الطبيعة الإنسانية على وجه العموم وعلاج اضطرابات
 السلوك كذلك .

علم النفس

في مطبوعات دار المعارف مجموعات شيقة نفيسة تشتمل على دراسات عميقة وأبحاث قيمة في مختلف ميادين علم النفس الذى شق طريقه إلى شتى مناحى الحياة وامتزج بها، يجد فيها المتخصص والهاوى كل ما يناسبه من الموضوعات في أسلوب واضح جل يحمل هذا العلم في متناول فهم الجميع .

لا يفوتك قراءة هذه الكتب .

- السينما والمسرح وأمراض النفس
- اتجاهات في التربية والتعليم
- مشكلات الأطفال اليومية
- التربية الجنسية
- الشباب الجامع
- مبادئ علم النفس العام
- اللغة عند الطفل
- ما فوق مبدأ اللذة
- التحليل النفسى والسلوك الجماعى